عبد الله إمـــام

حكايات

عن: عبد الناصر

الشعب

الاهـــداء

الى أبنـــاء جمـــال عبد الناصر ..
المـــلايين التى عاشـــت ثـــورة
عبـــد الناصر .. وأحبتـــه ...
الملايين التى أحبها عبد الناصر ،
ووهبها كل حياته .. فعاش من
أجلها ، واستشهد فى سبيلها ...

حكاية هذا الكتاب

من خلال ابنتى الصغيرة ، ولدت فكرة هذا الكتاب ..

فابنتى واحدة من الجيل الذى اطلق عليه عبد الناصر بحق ـ انه على موعد مع القدر ..

الجيل الذى عاش عبد الناصر ، وتعلم مجانا لأن عبد الناصر علمه ، ووجد علاجا ودواء ، فى مستشفيات عبد الناصر ، واستخدم فى كل حياته ما انتجته مصانع فتحها عبد الناصر ، وعرف الحياة سهلة لأن عبد الناصر أزال من أمامه كثيرا من الأشواك ، والصعاب ، والعقبات وفتح له مجالات واسعة للتقدم ، والنمو ، والتطلع ..

ابنتى تقرأ ، وتناقش ، وتتكلم ، وتعرف اشياء اكبر منها ، ومن عمرها .. وهى تحب عبد الناصر ، كانت تستمع دائما الى خطبه . تعودت على صوته ، معلوماتها السياسية كلها من كلماته ، تعودت أن ترى صوره كل يوم على الشاشة الصغيرة ، وفى كل الصحف .. ويوم فقدناه ، أصبحت تحتفظ بكل صورة تجدها له ، وبكل كتاب يصدر حاملا اسمه ..

ابنتى تحب أن تقرأ عبد الناصر ، وأن تعرف عنه كل شىء ، وأن تناقش كل حياته ، وأن تسمع حكايات عنه ، عن مواقفه .. عن مصر الحديثة ، التى قادها الى طريق الكفاية والعدل ..

وعنــــدما أصدرت كتابا عن عبد النـــاصر هو « النــاصرية » أهديتها أول نسخة تخرجها المطبعة منه ..

وفرحت بالهــــدية ، ليس لأن الكتاب من تأليف أبيها ، ولكن لأنه أيضا ، بل وأولا عن جمــال عبد الناصر ..

وبعد أيام أردت مناقشتها فيما قرأته ، فوجدت انه يصعب عليها استيعاب الكثير مما جاء فيه من دقائق المواقف النظرية للقائد ، والمعلم ..

وقررت أن أعكف على وضــع هــذا الكتاب عن عبد الناصر ليقرأه الجيل الجديد ، الذى تفتحت عيناه على الحياة فى عهده ..

الجيل الذى سمع أو عاش حياة عبد الناصر ولم يعرف من قصة التأميم الا انها كانت ردا على رفض الغرب لتمويل السد العالى ..

الجيل الذى سمع ــ أو عاش ــ قصة كسر احتكار السـلاح ، ولم يعرف .. لماذا كسر هذا الاحتـكار ولا كيف ..

الجيل الذى سمع أو عاش حياة عبد الناصر ولم يعرف كيف كان بسيطا فى بيته .. كيف تكونت فكرته السياسية واصــبح ثوريا لأول مرة ، والدوافع التى كانت وراءه ..

هذا الجيل لابد أن يعرف ذلك كله ، وأن تصحح معلوماته حول هذه المواقف ..

وايضا وقبله .. لا بد أن يعى هذه الحقائق الذين يعايشون السياسة ، ويهتمون بها ..

وهؤلاء قد أصبحوا ملايين بعد أن نقل عبد الناصر السياسة من كواليس الصالونات المعطرة ، وحكم الطبقة الواحدة الى المواطنين العاديين والبسطاء ، الذين عرفوا لأول مرة بفضل عبد الناصر ، أنهم يصنعون السياسة ، ويعيشونها واقعا كل يوم .. وان السياسة لم تعد الخطب فى الأمم المتحدة ، ولا المراوغات ، والأساليب الملتوية ، وانما السياسة التى عاشها الناس هى حياة حرة ، كريمة .. وآمنة ، ومطمئنة ، على اليوم .. والغد ..

السياسة التى عبر عنها عبد الناصر بالنسبة لنفسه بأنها ((**نفسى أوظف الأولاد ، وأجوز البنات**)) ووراء هذين المطلبين حياة كاملة للانسان الجديد تغطى جميع مطالبه امنا ، وصحة ، وتعليما ، ومسكنا ، وتأمينا ، وفوق ذلك كله .. عدلا وحرية له ، ولوطنه .

هذه هى السياسة التى عاش يناضل من أجلها جمال عبد الناصر ، وخاض لتحقيقها معارك ضارية ، وشرسة فى الداخل والخارج ..

وكان نضال عبد الناصر الدائم ، والمتجدد ، يصنع حكايات .. بعضها عشناه فى وقته ، وما زال الكبار منا يروونه للصغار .. وبعضها ظل مختفيا وراء الكواليس .. فى انتظار الباحثين ، الذين ينقبون عنه ، ويرفعون الستار عنه ..

من هذه الحكايات صنع نسيج هذا الكتاب .. ليقرأه الجيل الجديد ، وليصحح بعض المفاهيم عند الجيل القديم ، وليعطى أضواء لازمة للذين احبوا عبد الناصر عن الأحداث التى صنعها ، وكانت خلفياتها ، وحكاياتها مجهولة بالنسبة لهم ..

ولقد قصدت أن يطغى على الحكايات الجانب السياسي بالمعنى الواسع حتى نحتفظ لعبد الناصر بمجده الأول كزعيم سياسي غير وجه التاريخ فى عدد من المواقع على خريطة الكرة الأرضية ، وترك علامات واضحة لفكره السياسي ، ولأسلوبه الثورى فى كثير من الدول ..

ان الكتب ، والمؤلفات التى صدرت ــ والتى سوف تصدر ــ عن جمال عبد الناصر كثيرة ، فهو كبطل تاريخى ، بعث أمة وأيقظ شعبا ، وهز وجدان العالم ، لا بد أن تكون حياته حافلة ، مليئة بالانجازات ، غنية بالجوانب التى يمكن أن يتناولها الدارسون والمؤلفون ، وخاصة الذين أحبوه ، وآمنوا به ، واقتربوا منه ، وعرفوه ..

والجماهير ــ وخاصة الجماهير العربية ــ تريد أن تعرف دائما الكثير عن عبد الناصر ، مواقفه ، وفكره ، تعطيها زادا الى الانطلاق لمزيد من التقدم ، وتكون ملهمة لها ، وباعثة على استمرارها فى تحقيق آمالها .. على الطريق الذى ارتضت أن تسير فيه خلف راية عبد الناصر الخفاقة ، والمخلصة ..

لقد كان مفكرا عميقا ، وزعيما أصيلا .. ومناضلا صلبا .. ومحبا لبلاده باخلاص .. ولكنه كان فوق هذا كله .. كان انسانا .. كان ابن مصر .. ابن طينها الأسمر ، ونيلها الخالد العريق .. ابن الريف المصرى الأصيل الذى عاش حياته كلها ووصل الى اقصى ما يتمناه بشر عندما تجمعت قلوب الملايين الذين يعرفونه والذين لا يعرفونه ، الذين يحبونه ، والذين يكرهونه .. قلوبهم تجمعت حوله .. وكلهم عاشوا فى أمان لأنه بينهم ..

كان عبد الناصر ، كل ذلك .. ولكنى كنت أحس دائما ـ انه بالنسبة لى كان أكثر من ذلك وفوقه ..

وهذا الكتاب ليس كتابى الأول عن عبد النـاصر ـ كما قلت ـ فقد حاولت ـ متسرعا ـ بعد أن جفت الدموع ان اقوم بواجب رأيت انه من المحتم على أن أؤديه نحو الرجل الذى أحببته .. فأصدرت كتابى « الناصرية » تناولت فيه ما تصورت انه يمكن أن يكون كافيـا لعرض الجوانب الأساسية فى فكر جمـال عبد الناصر حول الحرية ، والاشتراكية ، والوحدة .. فان فكره ـ الى جانب انجازاته ـ هو الزاد الباقى ، الذى يجب أن نحرص عليه ، وننقيه ، ونضعه أمام الجماهير التى أحبته ، وآمنت به ..

وكان كتابا سياسيا يخاطب الذين يهتمون بالفكر النظرى لعبد الناصر .. ويضعهم أماب باب البحث ، والتأمل ..

ولقد كنت احس ـ وما زلت ـ اننى لم أقم نحو عبد الناصر بالوفاء الذى يستحقه منى ومن غيرى من الكتاب الذين طالما تعودوا أن يعلنوا ايمانهم به وبفكره فى حياته ..

رأيت ان أعاود الكتابة ، والتأليف عن عبد الناصر ، والا أكف عن هذه المحاولات ، حتى أصل الى نوع من الارضاء النفسى ، بأننى أديت واجبى نحو القـائد ، والزعيم .. والانسان ..

عندما رأيت ذلك كانت امامى صورة ابنتى ، ومعها الملايين الذين أحبوا عبد النـاصر ، والذين يجب ان توضع أمامهم مؤلفات متعددة حول حياة البطل الذى

عشقوه ، مؤلفات تضيف الى معلوماتهم ، وتجسد امامهم الصورة الحقيقية للرجل الذى عرفوه من خلال مواقفه ، والقضايا التى تعرض لها . والمعارك التى خاضها ..

وكان هذا الكتاب الذى يضم عددا من الحكايات بطلها وصانعها ، ومؤلفها الحقيقى ، هو جمال عبد الناصر ، وجهدى فيها فقط هو مجرد جمع المصادر ، والمراجع ، والأشخاص الذين أمكننى أن أعطى هذه الصورة من خلالهم ..

ولعلى أكون قد وفقت ..

ولكنها على كل حال محاولتى الثانية ، على طريق الوفاء لعبد الناصر ..

واملى الا تكون الأخيرة

عبد الله امام

● حكاية بطل ●

عبد الناصر يروي قصة الثورة

ليس صحيحا أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التى أسفرت عنها حرب فلسطين ، وليس صحيحا كذلك انها قامت بسبب الأسلحة الفاسدة التى راح ضحيتها جنود وضباط ، وابعد من ذلك عن الصحة ما يقال أن السبب كان أزمة انتخابات نادى ضباط الجيش .

انما الأمر فى رايى كان ابعد من هذا واعمق اغوارا .

وانا احاول اليوم بعد كل ما مر بي من احداث وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير فى الثورة ، أن أعود بذاكرتى واتعقب اليوم الأول الذى اكتشفت فيه بذورها فى نفسى .

ان هذا اليوم ابعد فى حياتى من أيام شهر نوفمبر ١٩٥١ أيام ابتداء أزمة نادى الضباط ، ففى ذلك الوقت كان تنظيم الضباط الاحرار قائما يباشر عماله ونشاطه .

وهذا اليوم — فى حياتى ايضا — أبعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة .. فقد كان تنظيم الضباط الأحرار موجودا قبلها ، وكانت منشوراتهم اول نذير بتلك المأساة ، وكان نشاطهم وراء الضجة التى قامت حول الأسلحة الفاسدة .

بل ان هذا اليوم فى حياتى ابعد من يوم ١٦ مايو ١٩٤٨ ذلك اليوم الذى كان بداية حياتى فى فلسطين .

ثم ان هذا اليوم ـ اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى نفسى ـ ابعد من حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذي كتبت بعده خطابا الى صديق قلت له فيه « ما العمل بعد أن وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خائفين ؟ » .

وكذلك فان هذا اليوم أبعد فى حياتى من الفوران الذى عشت فيه أيام كنت طالبا أمشى مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور ١٩٢٣ .. وقد عاد الدستور بالفعل فى سنة ١٩٣٥ .. وأيام كنت اسعى مع وفود الطلبة الى بيوت الزعماء نطالب منهم أن يتحدوا من اجل مصر ، وتالفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على أثر هذه الجهود .

واذن فمتى كان ذلك اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى اعماقى ؟

انه بعيد .

فاذا اضيف الى هذا كله ، أن تلك البذور لم تكن كامنة فى اعماقى وحدى ، وانما وجدتها كذلك فى اعماق كثيرين غيرى ، هم الآخرون بدورهم لا يستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها داخل كيانه .. لاتضح اذن أن هذه البذور ولدت فى أعماقنا حين ولدنا .. وانها كانت أملا مكبوتا خلقه فى وجداننا جيل سبقنا .

وكثيرا ما سئلت .. متى أصبحت ثوريا لأول مرة ؟ .. وهو سؤال يستحيل الاجابة عليه ، فهذا الشعور أملته ظروف تكوينى وتنشئتى وغذاه شعور عام بالسخط والتحدى اجتاح كل أبناء جيلى فى المدارس والجامعات ، ثم انتقل الى القوات المسلحة .

انني الابن الاكبر لاسرة مصرية من الطبقة المتوسطة الصغيرة ، وقد كان أبى موظفا صغيرا فى مصلحة البريد يبلغ مرتبه الشهرى نحو عشرين جنيها ، وهو مرتب يكفى بصعوبة لسد ضرورات الحياة .

وقد ولدت فى الاسكندرية ، لكن ذكرياتى الأولى تدور حول قرية الخطاطبة وهى قريه تقع بين القاهرة والاسكندرية ، حيث كان أبى يعمل وكيلا للبوسطة وكنا دائما أسرة سعيدة يحكمها أبى ولكن القوة الحافظة فيها كانت أمى التى كنت أنا واخوتى نتفانى فى حبها .

واذكر اننى قد اعجبت فى طفولتى بعدد كبير من الأبطال ، لقد اعجبنى غاندى كثيرا ، وعندما كنت صبيا أتلقى دروس الديانة فى المدرسة استحوذ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على كل اعجابى وتقديرى ، فقد كان قائدا وزعيما كرس حياته لخدمة قومه وتحريرهم من ظلمة الجاهلية وضلالها .. وعندما كنت طالبا فى المدرسة الابتدائية ساءنى أن أقرأ فى كتاب التاريخ ان نابليون يعتقد فى سياسة القوة والعنف التى أكرهها ولا أعترف بها .. كذلك أيضا أتاتورك كان قاسيا ، خلوا من المبادىء والأخلاق ، فقد وقع بيده وثيقة اعدام أعز اصدقائه وأقربهم الى قلبه .. ولم يتأثر — ان الثورات يجب أن تقوم على أساس من المبادىء والمثل العليا .

ومنذ عام ١٩٣٤ بدأت أقرأ الكثير عن مصطفى كامل .. قرأت تاريخ حياته ومقالاته الوطنية الحماسية التى كانت تنشر فى الصحف ، ثم شرعت بعد ذلك فى قراءة مؤلفات الحكيم والدكتور طه حسين .. وطبيعى اننى كنت أهتم اهتماما خاصا بقراءة كل ما يتصل بتاريخ مصر منذ القرن التاسع عشر ، وبالاضافة الى كل هذا وذاك قرأت مجموعة كبيرة من القصص والتراجم والأشعار ، كما كنت أجد متعة عند قراءة الكتب عن الثورة الفرنسية ، ولقد قرأت عدة مرات قصة شارل ديكنز المشهورة . قصة مدينتين ، ورأيت كيف صور الكاتب بشاعة القسوة وأعمال العنف والارهاب التى سادت فرنسا فى ذلك الوقت .. لقد علمتنى هذه القصة

شيئا .. أننا اذا شرعنا فى القتل واراقة الدماء ، فانه سيكون من الصعب حقن الدماء .

وما زلت أذكر بوضوح أول صدام لى مع السلطة .. كان ذلك فى سنة ١٩٣٣ وكنت يومئذ تلميذا فى الاسكندرية لم أبلغ بعد الخامسة عشرة من عمرى وكنت أعبر ميدان المنشية فى الاسكندرية .. حين وجدت اشتباكا بين مظاهرة لبعض التلاميذ وبين قوات من البوليس ، ولم أتردد فى تقرير موقفى ، فقد انضممت على الفور الى المتظاهرين دون أن أعرف أى شىء عن السبب الذى كانوا يتظاهرون من أجله ، ولقد شعرت أننى فى غير حاجة الى سؤال .. لقد رأيت أفرادا من الجماهير فى صدام مع السلطة ، واتخذت موقفى دون تردد فى الجانب المعادى للسلطة .

ولما كنت فى قسم البوليس وأخذوا يعالجون جراح رأسى ، سألت عن سبب المظاهرة ، فعرفت أنها مظاهرة نظمتها جماعة مصر الفتاة فى ذلك الوقت للاحتجاج على سياسة الحكومة .

وقد دخلت السجن تلميذا متحمسا وخرجت منه مشحونا بطاقة من الغضب وقد مضى بعد ذلك زمن طويل قبل أن تتبلور أفكارى ومعتقداتى وخططى ، ولكن حتى فى هذه المرحلة المبكرة كنت أعلم أن وطنى يخوض صراعا متصلا من أجل حريته .

وكان أبى قلقا بسبب آرائى السياسية ، فقد سجن أخوه أيام الحرب العالمية الأولى بتهمة الاثارة السياسية ، ولذا كانت مخاوفه أن يحل بى ما حل بعمى مخاوف طبيعية .. فقد كان كل أمله أن نحيا جميعا حياة آمنة بعيدة عن المزعجات .

ولكننى بعد اشتراكى فى المظاهرة السياسية الأولى ، دخلت الميدان بكل جوارحى وأصبحت رئيس لجنة لتنظيم المقاومة ولا سيما مقاومة السيطرة الساخطة واقد كان ذلك متنفسا لابد منه لعواطفنا الحادة ولشعورنا بالكبت الذى يضغط على وطننا .

وفى نهاية الأمر ضاق المسئولون فى المدرسة ذرعا بنشاطى ، ونبهوا ابى فارسلنى الى القاهرة لأعيش مع عمى والتحق بمدرسة اخرى هناك .

وفى تلك الفترة حدث لى حادث أثر فى عواطفى أكثر من أى شىء آخر فى تلك السنوات الباكرة ، فقد كان أبى مصرا على معارضة مشاعرى وأعمالى الثورية ، اما أمى فقد كانت تنظر الى السياسة نظرها الى شىء لا يعنيها ، وكانت العلاقة القائمة بيننا هى مجرد علاقة الحب الخالص الذى يربط ما بين الأم وولدها ، ولم أكن افرط فى رحلاتى لزيارة اسرتى ، ولكن حين انقطعت عنى انباء امى فترة من الزمن سافرت لزيارة الأسرة ، ولما بلغت البيت لم اجد لها اثرا ، وعلمت انها قد ماتت قبل ذلك بأسابيع ولم يجد احد الشجاعة الكافية لابلاغى بموتها — ولكنى اكتشفت موتها بنفسى بطريقة هزت كيانى .

وعدت لفورى الى القاهرة .. حيث كرست نفسى لنشاطى السياسى بصورة اعنف من ذى قبل .. وخفف الزمن صدمتى .. ولكنى ظللت مبتعدا عن اسرتى لعدة سنوات ، فقد كان فقد امى فى حد ذاته امرا محزنا للغاية ، اما فقدها بهذه الطريقة فقد كان صدمة تركت فى شعورا لا يمحوه الزمن وقد جعلتنى آلامى وأحزانى الخاصة فى تلك الفترة أجد مضضا بالغا فى انزال الآلام والأحزان بالغير فى مستقبل السنين .

وفى سنوات التكوين شغلت اهتمامى كل الأحزاب السياسية التى كان هدفها الأول ان ترد للشعب المصرى حريته ، وقد انضممت مدة عامين بعد مظاهرة الاسكندرية الى جماعة مصر الفتاة ، ولكنى تركتها بعد أن اكتشفت أنها رغم دعواها العالمية لا تحقق شيئا واضحا .

وقد فوتحت فى عدة مناسبات للانضمام للحزب الشيوعى ، لكنى رغم دراستى للمذهب الماركسى ولكتابات لينين وجدت امامى

عقبتين أساسيتين .. كنت أعلم أنه لا سبيل الى التغلب عليها .. العقبة الأولى هى أن الشيوعية فى جوهرها ملحدة .. وقد كنت دائما مسلما صادقا أومن ايمانا لا يتزعزع بوجـود قة و فوق قوة البشر هى الله ، الذى يهيمن على كل مصائرنا ومن المستحيل على أى انسان أن يكون مسلما صادقا وشيوعيا صادقا . اما العقبة الثانية فهى أنى أدركت أن الشيوعية معناها بالضرورة سيطرة من نوع ما من الأحزاب الشيوعية العالمية ، وهذا أيضا ما كنت ارفضه رفضا باتا وقد كان كفاحى وكفاح زملائى طويلا وشاقا لانتزاع السلطة من الطبقات الاقطاعية ولتحطيم السيطرة الأجنبية على مصر ولتحقق بلادنا الاستقلال الصادق .. وعلى هذا فلقد كان مجرد الظل لسيطرة أجنبية امرا لا أستطيع أن أقبله .

وقد كانت لى اتصالات متعددة بالاخوان المسلمين رغم أنى لم أكن قط عضوا فى هذه الجماعة ، وأحسست بقوة زعيمهم المرشد العام حسن البنا ، وهنا وجدت أمامى صعوبات دينية ، فقد كان فى تصرف الاخوان المسلمين ضرب من التعصب الدينى وما كنت أرضى بانكار عقيـدتى ولا بأن تحكم بلادى طائفـة متعصـبة ، كنت واثقا من أن التسامح الدينى لابد وأن يكون ركنا اساسيا من أركان المجتمع الجديد الذى كنت أراه قائما فى بلادى .

أنا كنت سـنة ١٩٣٦ أو قبل سـنة ١٩٣٦ من سـنة ١٩٣٤ انضميت الى جماعة مصر الفتاة ، والحقيقة انضميت اليها بطريق الصدفة ، أنا كنت ماشى فى الاسكندرية فى المنشية ، فوجدت معركة بين البوليس وبعض الناس فانضميت بحكم العـادة للناس ضد البوليس ومسكونى ، ورحت قسم المنشية ، بعد ما دخلت وحطونا فى الحجز .. سألت الناس اللى معايا .. ايه الحكاية فقالوا لى أن جماعة مصر الفتـاة كانت عايزة تعمـل اجتماع والبوليس منعها بالقوة ، وتانى يوم جه شيخ الحارة وطلعنى بالضمان بتاعه ، وطلعت دورت على مصر الفتاة .. وجدت مصر الفتاة كان فيها أحمد حسين وفتحى رضوان وانضميت لها .

فى الحقيقة انضميت وقعدت وشفت . مكنتش لسه اشتغلت بالسياسة وشفت الكلام اللى بيقولوه وبيعملوه ، والحقيقة اقتنعت جدا وانضميت الى مصر الفتاة وجيت هنـا كنت ساكن فى الظاهر وكانت مصر الفتاة فى الساحة ، فكنت اعدى مثلا بعد الظهر أروح الساحة وادخل مصر الفتاة ، الاقى مثلا الجريدة ، كان عندهم جريدة أو مجلة اسمها الصرخة موجودة فى مطبعة الرغائب اللى موجودة وراء سينما رويال مش لاقيين حد يروح يجيبها أو عربية تروح تجيبها .. آجى أشيل الجرائد على مرة واثنين وثلاثة لغاية ما أوديها .

عمل مقتنع بيه وبعدين مش لاقيين ورق بوستة علشان يبعتوا الاشتراكات .. ادور على اللى معايا .. ايه كل الفلوس .. اللى معايا أروح أجيب بيها ورق بوستة .. وبعدين أظرف الجريدة . وناس كانوا بيعملوا معايا هناك .. بهذا الشكل نشيلها .. ونروح على العتبة .. ونرمى المجلة فى الصندوق .. وبعدين يبقى مفيش معايا ولا مليم .. اضطر أروح الظاهر ماشى . يعنى ايه اللى خلانى أعمل كده ؟..

وتبلورت مشروعاتى لمستقبلى بعـد عقد المعـاهدة المصرية الانجليزية عام ١٩٣٦ التى نجم عنها ان حكومة الوفد أصـدرت مرسوما يقضى بفتح الكلية الحربية للشبان بصرف النظر عن طبقتهم الاجتماعية أو ثروتهم ، وكنت أنا مع نفر من الآخرين الذين ظلوا فيما بعد رفاقا حميمين ، من بين أول من استطاعوا الانتفاع من هذا الوضع ـ فالتحقت بالجيش بعد ان كنت ادرس فى كليـة الحقوق .

وتخرجت بعد سنتين فى ١٩٣٨ من الكليـة الحربية بالعباسية برتبة ملازم ثان وفى نفس السنة تخرج اثنان من الضباط هما زكريا محيى الدين ومحمد انور السادات اللذان اقترن اسماهما فيما بعد اقترانا وثيقا بقصة الثورة .

كان الجيش المصرى حتى ذلك الوقت جيشا غير مقاتل ، وكان من مصلحة البريطانيين أن يبقوه على حاله ، أما بعد ذلك فقد بدات تدخل طبقة جديدة من الضباط الذين كانوا ينظرون الى مستقبلهم فى الجيش بوصفه مجرد جزء من جهاد أكبر لتحرير شعبهم .. وعينا ثلاثتنا فى حامية منقباد . ولكن سرعان ما أصبنا بخيبة أمل ، فقد كان اكثر الضباط عديمى الكفاءة وفاسدين ، وقد دفعت الصدمة بعض زملائى من الضباط الى حد الاستقالة ، أما أنا فلم ار جدوى من الاستقالة رغم أن سخطى كان لا يقل عن سخط الآخرين ، واتجه تفكيرى بدلا من ذلك الى اصلاح الجيش وتطهيره من الفساد .

وفى ١٩٣٩ نقلت الى الاسكندرية وهناك التقيت بعبد الحكيم عامر ، وكان يشاركنى ذلك الاعتقاد الراسخ فى الأعماق بضرورة الثورة والتغيير وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية بزمن وجيز ، نقلت الى كتيبة بريطانية تعسكر خلف خطوط القتال بالقرب من العلمين .. ولم يكن هناك اى تعارض بين استطاعتى أن أشعر بشعور ودى نحو عدد منهم على المستوى الشخصى ، وأن احترمهم ايضا كجنود وبين شعورى العميق بضرورة التخلص من السيطرة البريطانية .

وفى هذه المرحلة رسخت فكرة الثورة فى ذهنى رسوخا تاما ، أما السبيل الى تحقيقها فكانت لا تزال بحاجة الى دراسة وكنت يومئذ لا ازال اتحسس طريقى الى ذلك ، وكان معظم جهدى فى ذلك الوقت يتجه الى تجميع عدد من الضباط الشبان ، أشعر انهم يؤمنون فى قراراتهم بصالح الوطن ، فبهذا وحده كنا نستطيع أن نتحرك حول محور واحد هو خدمة القضية المشتركة .

كنا بحاجة الى شيء يجعلنا جميعا ندرك الضرورة الملحة والحتمية فى حركتنا الثورية فأعطانا الانجليز ما نحتاج اليه .. كان

ذلك فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ، ومنذ ذلك التاريخ لم يعد شيء كما كان ابدا .. ان حوادث ٤ فبراير قد الحقت العار بمصر ، لكنها رغم ذلك الهمتنا بروح جديدة ، فقد ايقظت هذه الحوادث اناسا كثيرين من سباتهم وعلمتهم ان هناك كرامة تستحق ان يدافع عنها الانسان بأى ثمن .

وكان عام ١٩٤٥ اكثر من مجرد عام انتهاء الحرب ، فقد شهد هذا العام بداية حركة الضباط الأحرار .. تلك الحركة التى أشعلت فيما بعد شعلة الثورة فى مصر .

وقد ركزت حتى ١٩٤٨ على تأليف نواة من الناس الذين بلغ استياؤهم من مجرى الأمور فى مصر مبلغ استيائى ، والذين توفرت لديهم الشجاعة الكافية والتصميم الكافى للاقدام على التعبير اللازم .. وكنا يومئذ جماعة صغيرة من الأصدقاء المخلصين، نحاول أن نخرج مثلنا العليا العامة فى هدف مشترك وفى خطة مشتركة .. وكانت بى رغبة عارمة للمعرفة .. فأقبلت على الاطلاع بنهم والتهمت كتب المفكرين من امثال .. لاسكى ونهرو ، وانيورين بيفان وبدأت أفكار الاشتراكية تتكون لدى شيئا فشيئا .

وجاءت القطرة الأخيرة التى طفح الكيل بعدها .. فى مايو ١٩٤٨ أنهت بريطانيا انتدابها على فلسطين ، واحسسنا جميعا بأن اللحظة جاءت للدفاع عن حقوق العرب ضد ما اعتبرناه انتهاكا صارخا لا للعدالة الدولية وحدها ، ولكن لكرامة الانسانية كذلك .

لقد اتضح لى عندئذ ان المعركة الحقيقية هى بالفعل فى مصر ، فبينما كنت ورفاقى نحارب فى فلسطين ، كان السياسيون المصريون يكدسون الأموال من أرباح الأسلحة الفاسدة .. ولقد كان من الضرورى تركيز الجهود لضرب اسرة محمد على .. فكان الملك فاروق هو هدفنا الأول من نهاية ١٩٤٨ الى ١٩٥٢ .

واقمنا تنظيمنا ونسقنا نشاطنا ، ونشبت فى منطقة القنال حرب عصابات لتدمير المنشآت البريطانية ، وكنت اعلم ان عدم قيامنا بأية محاولة كبرى للاستيلاء على السلطة قبل أن نستعد تماما ، أمر حيوى بالنسبة لنا .. وكان فى نيتى ان نحاول القيام بثورتنا فى ١٩٥٥ .. لكن الحوادث أملت علينا قرار القيام بالثورة قبل ذلك بكثير .. كانت الأحداث تتطور بسرعة لا نملك السيطرة عليها .. كان السياسيون يتراشقون بالاتهامات وبدات الجماهير تعبر عن غضبها وسخطها علنا .. وفى ٢٦ يناير ١٩٥٢ حدثت مأساة حريق القاهرة .. ولم تتخذ السلطات اى اجراء .. وتملك الملك الجزع من أن يصبح النادى ـ نادى الضباط ـ مركزا للتمرد ، فصمم على أن يكون الرئيس الجديد مرشحا من مرشحيه وهو اللواء حسين سرى عامر .

وكنت لا أقل عنه تصميما على الحيلولة دون وقوع ذلك ، فرشحت أنا وزملائى من جماعة الضباط الأحرار اللواء محمد نجيب ، وقمنا بالدعاية له دعاية سافرة .. وجاء انتخاب اللواء محمد نجيب بأغلبية كبرى .. لكن الانتخاب الغى بتعليمات من الملك شخصيا ..

وحل الملك اللجنة التنفيذية لنادى الضباط .. واصدر وزير حربيته قرارا بتعيين اللواء محمد نجيب مديرا لسلاح الحدود بالقاهرة ـ كما نقل كثير من الضباط الى مراكز نائية خبطا فى الظلام .

ولقد أحسست بأن تأخير محاولتنا القيام بثورتنا حتى ١٩٥٥ مسألة مستحيلة ، فان الحوادث تتحرك بسرعة والاستعداد الثورى أصبح متحفزا .. ثم ان هيبة فاروق كانت فى الحضيض .. لقد قدرت أن الموقف مناسب ..

وفى منتصف شهر يوليو دعوت الموجودين فى القاهرة من أعضاء الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار الى اجتماع وأبلغتهم بأن احتمالات القيام بالثورة مفتوحة للنجاح ، ولم يكن من رأيى اعدام الملك ، فقد كنت أحس أن اراقة الدماء ، تؤدى الى مزيد من الدماء ، وكنت أريد للثورة أن تضع المقاييس التى ستحاسب دائما بها .

وفى وضع خطتى الأساسية كانت امامى جملة مشاكل ، ولم أهتد الى حل لبعض هذه المشاكل الا بعد أن بدأنا فعلا .

ومن هذه المشاكل على سبيل المثال مشكلة الحرس الملكى الذى كان مؤلفا من نحو ست كتائب وهذه تفوق بعددها كثيرا مما كنت أستطيع أن أعتمد عليهم من الرجال ، لم أكن أعرف كيف يتصرف الحرس الملكى ، كذلك كان من مصادر قلقى احتمال تدخل البريطانيين أو الأمريكيين فى جانب الملك .

ومن مشاكلى أيضا أن كثيرين من الضباط الأحرار كانوا فى أماكن نائية لا تمكنهم من مساعدتنا ، ولم يكن فى القاهرة الا ثلاثمائة ضابط يمكن أن يناصرونا بصورة محققة ، ولقد قررت الا أشرك الكثيرين من هؤلاء اشراكا ايجابيا ، فقد كان الاحتياط أمرا جوهريا لنجاحنا ، ومن ناحية أخرى فلقد تصورت أنه ربما كان خيرا لو تركنا قوة أخرى من زملائنا تغلى قلوبها بالثورة لتواصل العمل اذا ما أخفقت محاولتنا .

ورسمت الخطة الأساسية بعد اجتماعات عقدناها فى بيوت عدد منا وسلمتها لعبد الحكيم عامر ليضع تفاصيلها ، وكنا نريد أن نبدأ فى التنفيذ بعد ٢٤ ساعة أى ليلة ٢١ يوليو ، لكن كان من المحال استكمال خطتنا على هذا الأساس وبناء عليه أجلت ساعة الصفر الى الساعة الواحدة صباح ٢٣ يوليو .

وفى نحو الساعة العاشرة من مساء ٢٢ يوليو جاء الى بيتى ضابط من ضباط المخابرات وعضو من جماعتنا وان كنا لم نخطره

بما اعتزمنا القيام به ، لتحذيرى بأن القصر قد تسرب اليه نبأ استعداد الضباط الأحرار للتحرك وانه قد اتصل برئيس أركان حرب الجيش الذى دعا الى عقد اجتماع عاجل فى الساعة الحادية عشرة لاتخاذ الاجراءات ضدنا .

وكان لابد من اتخاذ قرار فورى ، فلو اننا تركنا كل شىء ليتم فى ساعة الصفر المتفق عليها وهى الواحدة صباحا ، فقد يدركوننا قبل ان ندركهم ومن ناحية أخرى كانت الأوامر قد وزعت وكان من أصعب الأمور الاتصال بكل من له صلة بالموضوع .

وانضم الينا ضابط المخابرات وخرجت مع عبد الحكيم عامر لنجمع بعض القوات من ثكنات العباسية ووصلنا متأخرين ، فقد وجدنا البوليس الحربى قد أغلق الثكنات ، فمضينا الى ثكنات الفرسان والمصفحات فوجدنا أيضا انهم سبقونا وكان البوليس الحربى يحرس كل المداخل .

وبدا للحظات أن خطتنا كلها فى خطر ، ولم يبق على ساعة الصفر الا تسعون دقيقة ، وبدا أن خطة الثورة كلها تدخل فى مرحلة من تلك المراحل الخطيرة فى التاريخ ، عندما تتدخل قوى أكبر منا لتوجيه الحوادث . . ولقد تأكد لى من تطورات الأمور أن عناية الله كانت تلك الليلة معنا .

فقد انطلقنا لنتوجه الى ثكنات الماظة كحل أخير . وكنت أسير بسيارتى الاوستن ومعى عبد الحكيم عامر ، وفى طريقنا التقيت بطابور من الجنود قادمين فى نفس الطريق تحت الظلام ، واخرجنا الجنود من السيارة والقوا القبض علينا — لكن الجنود كانوا فى الحقيقة من قوات الثورة — وكانوا ينفذون أوامرى بالقاء القبض على كل الضباط فوق رتبة القائمقام دون مناقشة . ولم يكن الجنود يعرفون من أكون فتجاهلوا كل كلامنا لمدة عشرين دقيقة تقريبا ، كل دقيقة منها اثمن ما يكون ولم تصدر الأوامر فورا باطلاق سراحى وسراح عبد الحكيم عامر الا حين تقدم البكباشى يوسف صديق قائد

المجموعة وأحد زملائى المقربين ليستطلع سر الضجة ، ولم أسعد لرؤية أحد فى حياتى كما سعدت حين رأيت يوسف صديق يخرج من الظلام فقد تحرك قبل الموعد المحدد له وكان ينتظر حتى تحل ساعة الصفر ليبدأ الهجوم .

وانضممنا الى الطابور وقررت ألا ننتظر واتجهنا فورا الى القيادة وكانت قواتنا لا تزيد عن قوة سرية ، لكن عنصر المفاجأة كان فى جانبنا .

لقد اعتقلنا فى الطريق عددا من قادة الجيش الذين كانوا يحضرون الاجتماع فى القيادة لتوجيه الضربة ضدنا .

وحدثت مقاومة قصيرة خارج القيادة ، ثم اقتحمنا مبنى القيادة نفسه ووجدنا رئيس هيئة أركان الحرب وكان على رأس المائدة يضع مع مساعديه خطة الاجراءات التى ستتخذ ضد الضباط الأحرار وقبضنا عليهم جميعا .

وفى الساعة الثالثة صباحا ، التقت نفس مجموعة الضباط الذين كانوا قد التقوا قبل ذلك بعدة أيام ، التقوا من جديد ــ لكن التقاؤهم هذه المرة كان فى حجرة الاجتماعات بالقيادة العامة .

وأوفدت من يجىء باللواء محمد نجيب الذى كنا قد فاتحناه قبلها بيومين فى احتمال انضمامه الينا اذا ما نجحت المحاولة ، ولم نكن قد أطلعناه على أحداث الليلة ، لكن تبين لنا أنه كان له علم سابق بما حدث . فقد اتصل وزير داخلية الملك تليفونيا فى الإسكندرية قبل ذلك بنصف ساعة ليستفسر منه عما يجرى ، وأمكنه أن يجيبه بأنه لا علم له بشىء دون أن يكون كاذبا فى كلامه .

كان نجاحنا تاما فى الخطوات الأولى وبقى أن نستوثق تماما أن الملك لن يتمكن من تنظيم هجوم مضاد .. وفى الصباح أجرينا اتصالا بالسفارة الأمريكية أولا ثم السفارة البريطانية لابلاغهما أن الضباط الأحرار استولوا على السلطة وأن كل شىء يجرى فى نظام تام وأن حياة الأجانب وممتلكاتهم ستؤمن ما لم يحدث تدخل خارجى ».

وفى السابعة صباحا أعلنا على الشعب المصرى من محطة الاذاعة نبأ عزل الوزارة المصرية وأن البلاد أصبحت أمانة فى يد الجيش وأن الجيش أصبح الآن تحت اشراف رجال يستطيع الشعب أن يثق ثقة تامة فى كفاءتهم ووطنيتهم ، وكان الملك قبل ذلك بنصف ساعة قد سأل قائد جيشه عما يجرى من أمور فأجابه قائلا أنها مجرد عاصفة فى فنجان يا صاحب الجلالة .

وواجهتنا مشكلة كيف سنتصرف فى الملك .. وكان من رأى بعض الزملاء محاكمته واعدامه وكنت لا أزال على تصميمى أن تكون الثورة بيضاء ما أمكن ذلك وقد كنت أرى اخراج الملك من البلاد على وجه السرعة .

ولجأ الملك الى السفير الأمريكى وطلب اليه أن يتدخل مع الوزارة التى تألفت بعد الثورة لانقاذ حياته .. ولم نكن نريد حياته وانما كنا نريد خلعه من العرش .

ووقع الملك وثيقة التنازل عن العرش مرتين ، بعد أن قرأها وقعها أول مرة ويده ترتعش فاضطر الى توقيعها من جديد ، وكان فى حالة شبه هستيرية ، وسمحنا له بأن يأخذ معه ما بدا له ، ولم نشترط الا أن يكون على ظهر اليخت الملكى فى ميناء الاسكندرية قبل السادسة مساء ، وقد أمكن للملك رغم خوفه أن يجهز ٢٧٣ حقيبة وصندوقا .

وأعلن نبأ تنازله على الشعب فى السادسة مساء من محطة الاذاعة فى نفس الوقت الذى أبحر فيه على ظهر اليخت الملكى من ميناء الاسكندرية وهو يلبس الزى الرسمى الأبيض ، زى القائد الأعلى للبحرية ، وكان اللواء محمد نجيب يودعه على ظهر اليخت ، فكانت آخر كلمات الملك : لقد كنت أستعد لأفعل بكم ما فعلتم بى .

لقد نجحت العملية الأولى للثورة .. وبقى علينا أن نجعل المستقبل يستحق كل هذا العناء .. لم نكن راغبين فى الحكم مطلقا ، لا أنا ولا زملائى من الضباط الأحرار .. كنا مصممين على محو كل

اثر للسيطرة الاجنبية وعلى اجراء اصلاح زراعى حاسم لانهاء النظام الاقطاعى الذى اختفى من قبل فى أوربا منذ ثلاثمائة عام .. وكنت اريد ان يضطلع بالمسئولية حزب يمكن أن يؤتمن زعماؤه على العمل فى الحدود التى تلهمها روح الثورة .

وفى بداية الأمر .. صفقت كل الاحزاب وهللت ، وتصور كل من الوفد والاخوان المسلمين والشيوعيين أن الثورة لهم ، فقد كانوا يحسبون أن من اليسير عليهم تشكيل جماعة من شباب الجيش المتحمسين بما يتفق مع منهجهم .. ولكنهم عجزوا عن ادراك ما يكمن وراء الثورة من قوة فى الهدف .

وتحدثت مع زعماء كل الاحزاب ، لكنى لم أجد بينهم من كان على استعداد لتقديم صالح الشعب على صالح حزبه ، بل لقد ذهبت الى أكثر من هذا .. فعرضت على حزب الوفد أن أنقل اليه السلطة بشرط أن يضمن جلاء البريطانيين عن منطقة القنال وأن يطبق الاصلاح الزراعى الذى يحدد حيازة الملكية الزراعية بمائتى فدان للشخص الواحد .. ولكنهم رفضوا الاصلاح الزراعى .

وهكذا .. حملنا المسئولية على عاتقنا والأسف يملأ قلوبنا ، ولقد كان عملى يسيطر على حياتى ، فقلما وجدت الوقت لشيىء آخر غير العمل .

وسرعان ما اكتشفت أن حكم بلد من البلاد يختلف اختلافا عظيما عن قيادة كتيبة من الجنود .. ومع ذلك كانت هناك وجوه مشتركة بينهما .. فقد عرفت فى مرحلة باكرة جدا ضرورة التخطيط ، فالاصلاحات التى أردنا ادخالها كان لابد من تنفيذها على أساس الخطة الطويلة الأجل .

ولقد شغل التخطيط بالى فى هذه المرحلة .. ورحت أتحدث عنه الى كل من تتيح لى الظروف فرصة أن ألتقى به ، وتكون لديهم فكرة عنه أو تجربة .

وانى لأذكر أن موضوع التخطيط كان أول حـــديث طويل بين البانديت نهرو وبينى ..

ولم اكن استطيع ان اعتبر نفسى خبيرا ، كما انه لم يكن تحت تصرفنا الا عدد محدود من الخبراء ولا سيما فى المجال الاقتصادى وهو مجال ذو اهمية حيوية ، فالخـبراء رغم كل شىء قد يكونون فى بعض الأحيـان عبئا أكثر منهم عاملا مسـاعدا .. فقد يكونون متحجرين فيما ألفوه من أساليب ، ولهذا فانى أفضل المفكرين على الخبراء .. ان التفكير يجب أن يرسم الاطار العام للحركة أولا ثم يجىء دور الخبرة فى خدمة الاطار العام ..

مصادر التجميع

فلسفة الثورة .

ـ حديث الزعيم مع الكاتب الانجليزى (ديزموند ستيوارت) فى أول ابريل ١٩٥٧ .

ـ حديث الزعيم مع د . و . مورجان مندوب صحيفة الصنداى تيمس الانجليزية .. يونيو ١٩٦٢

ـ لقاء الزعيم بالمبعوثين سنة ١٩٧٠ .

.. وأصبح الفلاح ملكا لأول مرة !

الزمان : الأيام الأولى من شهر سبتمبر .. قبـــل أن ينقضى شهران على قيام الثورة ..

المكان : مبنى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة ..

الموضوع : مناقشات حول المشكلة الزراعية فى مصر ..

القرار : صك بتحرير الفلاح من عبوديته واطلاق سراحه بعـد آلاف السنين ..

والحكاية تبدأ فصولها فى مصر ، قبل الميلاد .. فمنذ آلاف السنين .. والفلاح المصرى يعانى من الظلم والطغيان ، يزرع ، وغيره يحصد ، يئن وصوته لا يسمعه أحد .. واجبات كثيرة تلقى عليه ، وليس له أية حقوق ..

ووقف جمال عبد الناصر الى جانب هذا الفلاح ، وظل بجواره ، حتى حرره تماما ، وجعـله شريكا فى صـنع الحياة السياسية فى بلاده ، فدخل كل المجالس الشعبية ، والتشريعية ، بل وضمن له عددا من المقاعد فيها بحكم الدستور والقانون .

قبل ذلك حرره ، حرر لقمة عيشه ، وارادته عندما أعاد اليه أرضه ..

ففى يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٥٢ خرج من القــاهرة عدد من المواطنين يحملون رسائل مثيرة ، ذهبوا بها الى كل بلاد الجمهورية يتسلمون أراضى الاقطاع .. التى وزعت على الفلاحين .

ولم تكن الحكاية سهلة ، أبدا ، فقد وقف كبار الملاك ضدها ، ووقفت الأحزاب السياسية تعارضها ـ ووقفت الوزارة التى جاءت بها الثورة متعاطفة مع كبار الملاك .. وقالوا جميعا انها ستؤثر على اقتصاد مصر .. واقتصاد مصر يعتمد على الزراعة ، ومعنى تحديد ملكية الأرض أن يجوع الناس ، والا نجد قطننا الذى نعتمد عليــه كسلعة أساسية ووحيدة فى التصدير ..

وقال عبد الناصر : سنوزع الأرض على الفلاحين .

وقالوا ان الذين عدد سيستفيدون عدد قليل لا يساوى احداث هزة فى الاقتصاد .

وقال عبد النــاصر : لا .. بل عددهم كبير والقرار له قيمة سياسية الى جانب ذلك هى تحرير الفلاح ، تحرير ارادته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وسنوزع الارض على الفلاحين .

ووزع الارض واستفاد مليون شخص من تطبيق قانون الاصلاح الزراعى الأول الذى جعل الحد الأعلى للملكية الزراعية ٢٠٠ فدان

ولكن لنبدأ بحكاية الفلاح الذى أعطاه جمال عبد الناصر أول وأبرز اهتماماته ..

❊ ❊ ❊

اذا كان الفلاح الفصيح قد عبر عن شكوى الفـــلاح المصرى فى التاريخ القديم ، فقد كانت أنات الفلاحين فى التاريخ الحديث تسجلها الصحف ، وتتناولها الأقلام ، وتلوكها ألسنة الساسة دون أن يحاولوا ايجاد حل جذرى لها ..

مثلا محمد على باشا انتزع من الفلاحين كل ما يملكونه من ارض . وقاوم الاهالى فترة ولكنهم استسلموا فى النهاية ، واهملوا الزراعة لأن خيرها لا يعود عليهم ...

وكتب المؤلف الانجليزى « ادوارد لين » الذى عاصر محمد على قصة شبيهة بقصة الفلاح الفصيح حدثت أيام **محمد على باشا يقول :**

« احد الاتراك ، هو سليمان اغا السلحدار كان مديرا لمدينة طنطا بالدلتا واشتهرت عنه القسوة وغلظة القلب .. ذهب ذات ليلة الى شونة الحكومة بتلك المدينة ووجد اثنين من الفلاحين نائمين بالشونة فسألهما من يكونا ، وما شأنهما بهذا المكان فأجاب أحدهما بأنه أحضر الى الشونة ١٣٠ اردبا من القمح من احدى قرى الناحية ، وأجاب الثانى بأنه أحضر ٦٠ اردبا من الأرض التابعة للمدينة .

وعند ذلك صاح المدير فى وجه الثانى قائلا :

ــ تبا لك أيها الوغد .. ان هذا الرجل قد احضر ١٣٠ اردبا من اراضى قرية صغيرة ، وانت لم تجىء الا بستين من اراضى المدينة .

فأجاب فلاح طنطا قائلا :

ــ ان هذا الرجل يجىء بهذا القمح مرة فى الاسبوع اما انا ، فأحضره كل يوم »

فانفعل المدير صائحا :

ــ اخرس .

واشار بيده الى شجرة قريبة ، وأمر احد خدم الشونة بشنق هذا الفلاح فى احد فروعها .

ونفذ الأمر ، وعاد سليمان اغا السلحدار مدير مدينة طنطا الى منزله .

وفى الصباح رجع المدير الى الشونة ، وأبصر برجل يجىء بقمح وفير ، وعندما سأل عنه أجابه جلاد الليلة السابقة :

ــ يا مولاى ، انه الرجل الذى أمرتنى بشنقه فى الليلة الماضية ، وقد أحضر ١٦٠ اردبا .

وصاح المدير متعجبا :

ــ ماذا تقول .. أعادت اليه الحياة ؟

فأجاب الجلاد :

ــ يا مولاى ، لقد شنقته بحيث لمست اصبعه الأرض ، وعندما رحلت حللت وثاقه اذ أنك لم تأمرنى بقتله .

فزمجر المدير التركى قائلا :

ــ الشنق والقتل شيئان مختلفان عندكم فى اللغة العربية ، انها لغة غنية .. فى المرة القادمة سآمر بالقتل ، ولكن احذر غضبى »

اليست هذه الحكاية شبيهة بحكاية الكلاح الفصيح ..

... المهم أن الفلاح المصرى استمر يزرع .. ويحصد ويعمل ولا يملك الأرض .

وفى نهاية عصر محمد على وزعت الأراضى البور للمقربين لزراعتها لا يؤدون ضرائب عنها ، وسميت بالابعاديات ..

ووزعت اراضى ثانية جيدة على ان يؤدى عنها ضرائب ، وسميت الشفالك ..

وكان ذلك نواة خلق طبقة جديدة مثلت الارستقراطية من ملاك الأرض ..

وجاء سعيد يضع لائحة تبيح لمستغل الأرض التأجير او الرهن أو البيع أو الارث .

وجاء بعده اسماعيل ليصبح مالكا لخمس الأراضى المنزرعة فى مصر ..

وبعد ان شقت قناة السويس وكثرت امتيازات الأجانب جاءت المحاكم القنصلية تنزع الأرض بموجب ١٧ قانونا تطبقها القنصليات الأجنبية .

وعندما احتل الانجليز مصر ، راحوا يصفون الدائرة السنية ، وراعوا ان يعطوا بعض الاسر مساحات واسعة من الارض مقابل ما أدوه للاحتلال من خدمات .. حتى خلقوا طبقة جديدة من ملاك الارض المتعاونين مع الانجليز الذين قال عنهم الجنرال اللنبى ((**انه من الممكن أن يجلو الانجليز عن مصر ، وهم مطمئنون الى انهم خلقوا طبقة من الكبراء يمكن لانجلترا أن تستأمنهم على سياستها فى هذه البلاد ، فهم فى نظر الانجليز درع يدافع عن سياستهم ، كما يدافع عنها الأسطول البريطانى**)) .

* * *

وظل الفلاح المصرى نموذجا للتعاسة ، وظلت مشكلة الفلاح المصرى ، مستعصية على الحل ، رغم آلاف الشعارات التى رفعت بترقيته اجتماعيا ، والنهوض به ، ومحاربة جهله ، وفقره ، ومرضه .. وبذلت محاولات لحل المشكلة .. ومع هذه المحاولات كانت انفاضات الفلاحين مستمرة ..

ثاروا فى كفور نجم ضد ظلم وتعسف الأمير محمد على ولى العهد .. ثاروا فى بهوت ضد ظلم وتعسف عائلة البدراوى ..

ورويت قصص ، وحكايات عديدة ..

فى بهوت روى لى الفلاحون ذات مرة ، كيف فرض عليهم الاقطاع أن يلبسوا جلاليب زرقاء فقط .. وكيف حدد اقامتهم داخل القرى التى يعملون بها فمنع عليهم الانتقال أو الخروج منها ..

وروى لى الفلاحون كيف كان أجر الفرد الواحد منهم بثلاثة تعريفة فى اليوم على الأكثر .. وتحدثوا عن أبنائهم .. كان ممنوعا أن يخرجوا من القرية للتعليم ، واذا قام أحدهم بأن علم ابنه ،

جاء الباشـا ليحتوى الابن ، ويضمن له وظيفـة بالابتدائية حتى لا يتعلم ..

واقاصيص كثيرة يرويها الفلاحون تفيض بالظلم الذى فاض حتى وصل الى حد الصدام المسلح مع قوات السلطة ، أيام كان فؤاد سراج الدين صهر البدراوى عاشور وزيرا للداخلية فى قمة سطوته ، وعنفوان خبروته .

فى اللجنة التحضيرية للمؤتمر القومى روى الفلاحون حكايات اخرى اكثر فظاعة عن الاقطاع ..

● « كانوا يحملوننا فى عربات كالبهائم الى لجان الانتخابات ، وكان لا بد لنا أن نخضع لأن الأرض أرضهم ، ونحن عبيدهم ، ونعمل عندهم ومن يمتنع عن ركوب هذه العربات لا يمكنه أن يعيش ، وكنا ندخل لجان الانتخابات نقول ما ليس فى ضمائرنا »

● « وكانت كلابهم تنـام على سراير مخصوصة ويسهر على خدمتها وتربيتها « أفندية » فى حين أن أولادنا كانوا ينامون على الارض بلا غطاء ولا رعاية ، وحدث مرة أن دخل صاحب الكلب غرفة الكلاب فوجد الشخص الآدمى الذى يخدم الكلاب نائما على السرير ، فما كان منه الا أن عاقبه بخصم ثلاثة أيام من مرتبه بحجة انه أقلق راحة الكلب ..

● « وفى مرة مرض الكلب ، فى حين أن هناك آلافا من الآدميين يقاسون من المرض والفقر والجوع ، مرض الكلب ، فاذا بمفتش الزراعة يتصل تليفونيا لاستدعاء طبيب للكلب « الفلانى » وكانوا يسمعون الكلاب بأسماء معنية ــ وقال ان الكلب الفلانى مريض ، واذا بسيارة خاصة تقوم من القاهرة بالطبيب البيطرى ، وقابله مفتش الزراعة وصحبه الى مكان الكلب حيث سهر على علاجه الى الثالثة صباحا ، وظل صاحب الكلب أو صاحبته تستفسر عن صحة الكلب تليفونيا ، وكان يتحتم طبعا على الفلاحين ان يشتركوا فى

الاهتمام بصحة الكلب ، فى حين أن الفلاحين الذين يزرعون كانوا يناموِن بدون أكل أو غطاء .

● « لا يخرج من ذهنى اذا تأخر أى واحد فى دفع ايجار الارض ، وكان ايجار الفدان يصل الى ١٠٠ جنيه ، كان تفتيش الزراعة يأخذ الفلاح بأولاده الى نقطة البوليس ، ويمنع عنه الاتصال بغيره كأنه مجرم ويأخذ مواشيه ويمنع دخول الأكل لهم حتى نتعاون مع بعضنا نحن الفلاحين لكى ننقذ الرجل وأولاده ومواشيه وندفع له ما يمكن دفعه حتى يخرج من السجن .

هذه بعض مآسى الاقطاع الذى توغل وتاجر فى أعراضنا ، وأرواحنا (١) » .

● « وضع أحمد باشا الخديوى يده على ١٨ الف فدان فى مركز نجع حمادى وزرعها قصبا وأقام فيها مصنعا للسكر يقدم انتاجه للأجانب » .

● « حدث ذات مرة أن جاع احد العمال ، فأخذ عودا من القصب واختبأ داخل الزراعة ليمصه ، وتصادف أن كان الباشا يمر على الزراعة ، فلمح أحد خدمه الرجل وهو يمص قصب أفندينا ، ولما سأله الباشا عن ذلك ارتعد الرجل خوفا وانكر ، فطلب الرجل استحضار من يذوق فم الرجل ، فان كان حلوا ثبتت عليه التهمة ، وفعلا أجاب أحد الخدم أن فمه حلو ، وقال آخر انه أمسكه بنفسه متلبسا ، فكان جزاء الرجل المسكين أن كتفوه بالحبال ، وطرحوه أرضا ، وخلعوا أسنانه ، وأضراسه بكماشة النجار وهو يستغيث فى الوقت الذى كان الباشا فيه يضج بالضحك حتى مات الرجل » (*)

● « كان للباشا وكيل على زراعته ، بلغه مرة من أعوانه أن هذا الوكيل سرق قصبا فأسرها الباشا فى نفسه حتى صحبه مع

(١) الفلاح عزت قطب ، أمام اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية

الحاشية فى يوم لزيارة المصنع ، ووقفوا امام احدى ماكينات الخراطة وألقى الباشا بوكيله فى الماكينة وهو يضحك ويقول « الرجل اكل قصب افندينا والآن يأكل وابور افندينا الرجل » (١) .

● « لما مات الباشا خلفه ابنه الأمير السابق يوسف كمال الذى كان باطنه المكر ، وظاهره الخلاعة ، وكان له كلاب صيد يزيد عددها عن المائة ، يركب الخيل مع السياس وبعض الأجانب ويمر على زراعات الأهالى بخيله وكلابه فيهرسونها ويتلفونها ، واذا شكا أحد يكون جزاءه عشرين جلدة ، ويسترضونه بقرش صاغ واحد » .

● « فى المساء يستحضر الطبالين والزمارين والمومسات الى سكنه بالبندر حيث ترتكب الفحشاء ويلتقط ضيوفه الأجانب هذه المجازى ، كل هذا ليعرف الأجانب أن شعب مصر عبيدا له ولآبائه وأجداده ، وكان فائض الأرض يطرح للايجار فى المزاد ، ومن يرسو عليه المزاد فيدفع نصف قيمة الايجار ، ويحرث الأرض ويزرعها حتى قبيل الحصاد ، فيحرض غيره على دفع الايجار اعلى فيأخذ الأرض بمحصولها وقد سبب هذا سفك الدماء والكراهية بين الأهالى » .

هذه بعض الحكايات عن الاقطاع ..

واذا كان الفلاحون ، قد هبوا مرات عديدة يواجهون هذا الطغيان ، فقد ارتفعت أصوات المثقفين الشرفاء تقف الى جانب الفلاحين .

ولقد شهد البرلمان المصرى محاولات للوقوف فى مواجهة الاقطاع عن **طريق الاصلاح** .. ولكن هذه المحاولات كلها لم تنجح .. لأسباب عديدة بينها موقف الأحزاب التى سيأتى الحديث عنه

---

(١) الفلاح طه محمد الخطيب ، امام اللجنة التحضيرية .

من بينها طبيعة النظام الرأسمالى الاقطاعى الذى كان يسيطر على البلاد يتولى حكمها لمصلحته .. ولكن النتيجة انه لم تنجح أية محاولات لمواجهة الاقطاع قبل الثورة .

● ففى سنة ٤٥ تقدم عضو مجلس الشيوخ محمد خطاب بمشروع قانون بتحديد الملكية ـ **مع عدم المساس بالملاك الحاليين ولا يسرى على ذريتهم** وكان المشروع يهدف الا يسمح لاى شخص يملك ٥٠ فدانا فأكثر أن يشترى أرضا جديدة .. ولا يسرى ذلك على حق الارث الشرعى ..

وقالت المذكرة الايضاحية لمشروع القانون « ان تحديد الملكية على الوجه الوارد فى هذا المشروع يخلق رأسمالا أهليا من ايراد المبالغ التى يحصل عليها كبار الملاك من بيع محصولاتهم فى كل عام والتى كانوا يخصصونها لزيادة ممتلكاتهم الزراعية وسوف لا يمر وقت طويل حتى ينسى كبار الملاك أسفهم على حرمانهم مما الفوه من الاستزادة من ملكية الأراضى عندما يجدون أموالهم تعود عليهم من **الاستثمار الصناعى** بكسب معقول دون عنت أو مشقة » .

ورفض مشروع القانون ..

● وفى سنة ١٩٥٠ قدم النائب ابراهيم شكرى الى مجلس النواب مشروع قانون بوضع حد أعلى للملكية الزراعية بحيث لا يزيد عن ٥٠ فدان للمالك وأيضا لم يوافق عليه مجلس النواب .

* * *

كانت صورة الملكية الزراعية قبل جمال عبد الناصر ببساطة هى ان ١/٥ الأرض الزراعية يملكها ٢٠٠٠ فرد بمتوسط ٦٠٠ فدان لكل منهم ، وان ٢٦٤٢ الف مالك يمثلون ٩٤٪ من الملاك يملك الواحد منهم ما متوسط ٨ر٠ من الفدان اى حوالى ٧٥٠ مثل .

هذه هى الصورة التى واجهها جمال عبد الناصر عقب طرد الملك مباشرة .. وخاض من اجلها اول معاركه بعد قيام الثورة .

كانت الثورة قد طلبت من الأحزاب أن تطهر نفسها . وتعلن برامجها .. وفيما يتعلق بمشكلة الفلاح والأرض ، فقد كانت برامج الأحزاب التى أعلنت بعد قيام الثورة كالآتى :

● **حزب الوفد** (١) فى الجزء الخاص بالفلاحين عرض لحل المسألة الزراعية على أساس فرض حد أدنى لأجر العامل الزراعى ، وتنظيم علاقة ملاك الأرض بمستأجريها ، أو زارعها ، وتجديد قرى القطر فى مدة أقصاها عشرين عاما ، والعمل على نشر الملكيات الصغيرة ، وتشجيعها وحمايتها وبيع أراضى الحكومة المستصلحة لصغار الزراع ، وبيع أراضيها البور ، وتعديل فئات الضرائب تعديلا جوهريا وزيادتها على الايرادات والتركات الكبيرة (٢) .

● **حزب الاحرار الدستوريين** (٢) نص برنامجه على أن تتخلى الحكومة للشعب عما فى حوزتها من الأراضى الصالحة للزراعة أو البناء فى حدود القانون للاكثار من الملكيات الصغيرة ، وتوزيع الضرائب توزيعا عادلا على أساس تصاعدى .

● **حزب السعديين** (٣) نص برنامجه على تحديد حد أدنى لأجور الفلاحين ، ووضع القواعد لعلاقة المؤجر بالمستأجر على أساس من العدل وتوزيع جميع أراضى الحكومة على ملكيات صغيرة بعد اصلاحها ، وفرض ضرائب مباشرة بنسبة تمتص الدخول بنسبة عالية بعد حد معين ...

● **الحزب الوطنى** (٤) تضمن برنامجه وضع حد لزيادة الملكية

---

(١) نشر برنامج فى صحف أول أغسطس ١٩٥٢ .
(٢) نشر فى ٧ أغسطس ١٩٥٢ .
(٣) نشر فى ٨ أغسطس ١٩٥٢ .
(٤) نشر فى ٢ أغسطس ١٩٥٢ .

الزراعية ، اما بوضع حد أعلى لنصابها ، أو يحصل ايراد ما يزيد على هذا النصاب داخلا فى نطاق ما تستوعبه الدولة من الضريبة التصاعدية ، كما نص على زيادة فئــات الضرائب التصــاعدية وتشجيع الملكية الصغيرة .

* * *

١٢ اغسطس ١٩٥٢

بعد أن نشرت كل الأحزاب برامجها ..

طلعت الصحف بمشروع قانون تعده الثورة لتحــديد الملكية الزراعية ..

وعادت الأحزاب الى الاجتماع ، وقد بدأ القلق يتسرب اليها ، وبدأ كبار الملاك يتحركون .. رئيس حزب الأحرار الدســتوريين يصرح بعد نشر مشروع القانون « ان تحديد الملكية مسألة دقيقة فينبغى أن تكون موضع دراسة » .

سكرتير حزب الوفد يقول انه من الأفضل ان تلجأ الدولة الى الضرائب التصاعدية .. وبعد ذلك يعلن فؤاد سراج الدين (١) بأن الوفد يوافق على المبدأ الذى هو صميم المشروع ، أما ملاحظاتنا فهى مقصورة على التفاصيل فقط دون الجوهر » .

غير الوفد موقفه ، وذلك حتى لا يخسر جماهيره التى بدأت الثورة تكسبها ، والتى رأت فى الثورة حلمها ..

ولكن موقف كبار الملاك كان مختلفا بطبيعة الحال ..

ذهب وفد منهم وقابلوا رئيس الوزراء على ماهر باشا يوم ٤ سبتمبر وسلموه مذكرة تحمل وجهة نظرهم ..

---

(١) المصرى ٦ سبتمبر .

قالت المذكرة الطويلة ..

« ان المشروع الذى نشر لا يتفق ودستور البلاد ، ولا مع الدين ، فواضع المشروع لم يستوح روح العدالة والمساواة ، بل جعل هدفه اهدار حق المالك بشكل ملحوظ ففى كل مادة من مواد هذا المشروع تجد انحرافا عن العدالة ، سواء فى المقدار الذى خصص لكل مالك ، أو فى الثمن ، وتحديده أو فى طريقة سداده ، أو تأجير الارض ، وغير ذلك من جميع مواد المشروع ، على سبيل المثال لا يفرق المشروع بين الأعزب والمتزوج والذى له أولاد وبنات أو ليس له فى حد المائتى فدان (١) وأن المشروع حدد ثمن الفدان بعشرة أمثال الفئة الايجارية على أن القاعدة العامة هى تقدير الثمن على أساس عشرين مثلا للفئة الايجارية ، وهذه القاعدة ثابتة لدى البنوك العقارية والشركات كما أن كثيرين من الملك اشتروا أرضا من الحكومة وغيرها على هذا الأساس ..

وقالت المذكرة التى كتبها **يعقوب بباوى ووقعها** معه **سامح موسى** وتبناها كبار الملاك : ان الأديان لم تقل مطلقا بتحديد الملكية ، بل هذا العمل من أعمال اللادينيين أصحاب المذاهب التى تهدم حرية الفرد ، وتجعله آلة مسخرة مسلوبة الارادة ..

ووصفت المشروع بأنه « شبكة محكمة التدبير يراد بها شل الاقتصاد الزراعى ، ومناهضته فى حين ان هذا الاقتصاد هو دعامة اقتصاد البلاد الرئيسى ، أما مخالفته للقانون والدستور فبادية للعيان » (٢) وقد اثارت المذكرة مسألة تقريب الفوارق بين الطبقات ، التى قيل فى ذلك الحين ان المشروع يعالجها ، فقالت إن « العلاج الوحيد لهذه المشكلة هو فى الضريبة التصاعدية التى

---

(١) استجابت الثورة لهذه الملاحظة وصدر قانون يعدل هذا النص يعطى للمتزوج الذى له أولاد بحق ٣٠٠ فدان .

(٢) الدكتور عبد العظيم رمضان مجلة الكاتب عدد سبتمبر ١٩٧١ .

قررت المذكرة أنها «المبدأ الذى أخذت به أرقى الأمم الديموقراطية» .
ثم زعمت المذكرة ان زعماء الاقتصاد والاجتماع فى مصر وفى الخارج قد عالجوا هذا الموضوع وخرجوا منه بنتيجة واحدة هى : « ان توزيع الملكية سيقضى على اقتصاديات البلاد ورخائها ، وسيجعل الجميع فقراء ، اذ سيقضى على الأغنياء ولا يغنى الفقراء (٢) » .

ثم تناولت المذكرة مسألة تحرير الفلاحين من سيطرة كبار الملاك ، فقالت ان « علاجه ميسور فى وجود الحكم الصالح وفى التشريعات التى تعطى للعامل حقوقا على المالك مثل تحديد الأجر وضمان حقوقه . واقترحت المذكرة علاجا آخر للحد من سيطرة كبار الملاك ، بدلا من تحديد الملكية ، فقالت : « ولا بأس للحد من سيطرة كبار الملاك الذين يملكون زمام ربع القرية أو ثلثها ، من انقاص تلك المساحة بشرط الا تمس الحقوق المكتسبة » .

ثم تعرضت المذكرة لما كان يتردد من أن المشروع يساعد على توجيه رؤوس الأموال الى النشاط الصناعى ، فوصفت هذا القول بأنه خطأ بعيد المدى لسببين : الأول ، ان النشاط الصناعى يحتاج الى كفاية فنية ومواد خام ، علاوة على المال ، لأجل الصمود أمام المزاحمة العالمية . وها نحن نرى أن المصانع التى انشئت بمصر غير قادرة على الصمود ، بل بعضها أصابته خسائر فادحة بسبب نقص فى احدى الوسائل الثلاث ، وربما تكون الكفاية الفنية أو المواد الخام . أما السبب الثانى ، فهو ان الميدان الطبيعى لتصنيع البلاد هو الصناعات الزراعية . وتلك الصناعات لا يمكن أن تقوم فى المساحات الصغيرة ، بل يجب أن تكون فى المساحات الكبيرة . ولذلك نرى فرنسا وهى أرقى الامم لم تلجأ الى توزيع الملكية لهذا

---

(٢) استفاد من قانون الاصلاح الزراعى الاول ١٧٦٩ مالكا يعيش عليها نحو ٢٠٠ الف أسرة تضم أكثر من مليون فرد كما استفاد ٤ مليون من تنظيم العلاقة بين المالك والمستاجر كما ذكرنا .

السبب الهـام ! على انه اذا كان المراد هو صرف رءوس الاموال المصرية عن الاستكثار من اقتناء الأراضى ، فان سريان قانون تحديد الملكية على المستقبل كفيل بذلك » .

ثم اخذت المذكرة تهاجم المشروع من جوانب ثلاثة : الجانب الأول ، ضرره على الاقتصـاد القومى . وقد عددت من هـذه الأضرار : ضعف الانتاج وانحطاط جودته وقالت ان هذا ثابت من احصائيات وزارة الزراعة السنوية ، حيث يظهر بجلاء أن انتاج المساحات الكبيرة هو ضعف انتاج المساحات الصغيرة فى الكمية والجودة . ثانيا : تدهور حصيلة الضرائب بجميع انواعها من عقارية وتجارية وكذا الضريبة التصاعدية ، لانكماش الاستهلاك العـام بسبب ضعف القوة الشرائية .

قدم كبار الملاك مذكرتهم هـذه الى رئيس الوزراء على ماهر باشا يوم ٤ سبتمبر ١٩٥٢ ..

ونشرت جريدة المصرى فى اليـوم التـالى ان رئيس الوزراء « **وجه اليهم الشكر على روحهم الطيبة** » وصرح لهم بأن قانون الاصلاح الزراعى سيوضع على أساس متين قوى من التعاون ، لا على أساس يهدف ولو من بعيد الى خلق نزاع بين الطبقات ، وانه طلب اليهم أن يوافوه بمذكرة أخرى فى ضوء المناقشات التى دارت ...

اجتمع مجلس قيادة الثورة ، وطلب من على ماهر أن يقـدم استقالته ، وقدمها يوم ٧ سبتمبر ..

وصرح بعد استقالته « بأن مجلس الوزراء قد أقر اجراءات المشروع بصفة عامة ونهائية » ...

ولكن متحدثا باسم قيادة الثورة صرح (١) بأن الاتفاق كان

(١) المصرى ٨ سبتمبر ١٩٥٢ (*)

قد تم بين مجلس قيادة الثورة ، وعلى ماهر على أن تصدر الحكومة قانون تحديد الملكية كما أعد ، ولكن الخطوات التى اتخذت بشأنه كانت هى الفاصلة المؤدية الى استقالة الوزارة ».

* * *

جمال عبد الناصر يقرر فى اللجنة التحضيرية المؤتمر الوطنى ان قانون الاصلاح الزراعى لم يكن فى ذلك الوقت هو الثورة الاجتماعية ، ولكن الاصلاح الزراعى كان فى ذلك الوقت دليلا على الحاجة الى الثورة الاجتماعية وعلى الالحاح عليها ، وكان تعبيرا عن آمال الفلاح وكفاحه الطويل من اجل التحرر » ..

وجمال عبد الناصر فى السنوات الأولى للثورة يتحدث عن الاصلاح الزراعى فيقول :

« كان الظلم الاجتماعى يتجسم فى كابوس الاقطاع البغيض ، وقد ورثنا طبقة من الحكام والأشراف ترفعوا عن الشعب وراحوا يستمتعون بنفوذهم وأموالهم ، وانقسمت البلاد الى فئتين كل منهما تكره الأخرى ، وهم من طينة واحدة ، معسكر العبيد ، طائفة الأسياد (١) .

« وانتم ادرى الناس بالاقطاع وكيف كان يؤثر فى الحياة السياسية ، ان طلبنا الرئيسى لم يكن اقتصاديا ، وانما هو تحرير الفلاح من سيطرة السيد ، وانتم كرجال اتيحت لهم الفرصة لكى تأخذوا حظكم من العلم ، ولكن هناك ١٨ مليونا لم ينالوا هذا الحظ ، ويجب أن تنظر الى أولئك الذين لم تتح لهم الفرصة

---

(١) ٢٣ فبراير ١٩٥٣ .

لنأخذ بيدهم ، ولابد ان ننظر لبلدنا كمجموعة واحدة ، ولن يتحقق ذلك الا اذا ارتفعنا بأهل الوطن جميعا ، وهذا الطريق هو الذى يحقق لنا حياة سعيدة كريمة خصوصا أن امكانيات البلد محدودة ، فلن نصل الى القوة والعظمة الا اذا عمل الجميع وشعروا بالحرية والمساواة (١) » .

« ولقد كانت سيطرة الاقطاع هى السيطرة المتحكمة فى هذا الوطن ، وكان صاحب الأرض يسيطر على الفلاح ، فكان العامل الأساسى فى التحرير ، والحرية هو القضاء على هذا الاقطاع . **وقد وجدنا صعوبة كبرى فى وضع** هذا الكلام موضع التنفيذ ، وحينما كنا نريد أن نقيم حياة ديمقراطية سليمة ، حاولنا أن نتفاهم على مسألة القضاء على الاقطاع ، وكانت هناك عدة اقتراحات منها زيادة الضرائب ، على ما يزيد عن ٢٠٠ فدان ، ولكن المعنى الذى كنا نقصده كان تحرير الفرد ، وعلى هذا الأساس سارت الثورة فطبقنا قانون الاصلاح الزراعى ، وكانت امنية كل مواطن أن توزيع الأرض على الملايين (٢) » .

وكان البدء بالقضاء على الاقطاع قبل مواجهة الاستعمار ، يعنى انه على الثورة التى طردت الملك ، وتخلصت من اسرة محمد على ان تتخلص من الطبقة التى خلقها الاستعمار لتحل مكان القصر، فقد « **كان الاقطاع قوة ارادها الاستعمار لتكون بديلا لقوة القصر فى الحكم وفى الظلم ، أو لتكون عونا له حسب مقتضيات الأحوال (٣)** » .

---

(١) حديث للمثقفين فى نادى الادارة ١٥ ابريل ١٩٥٤ .

(٢) فى الكلية الحربية ٢٨ مارس ١٩٥٥ .

(٣) افتتاح مجلس الامة ٢٢ يوليو ١٩٥٧ .

وفى اللجنة التحضيرية يعود عبد الناصر ليشرح قصة الصراع الطبقى الحاد الذى كان منفجرا فى المجتمع والذى كان لابد من القضاء عليه أولا فيقول :

« انا حبيت اقول هذا الكلام علشان ابين المعركة من أول يوم من سنة ٥٢ ، وهى معركة فيها شد وجذب وفيها صراع طبقى ، مانقدرش نقول ان مافيش صراع طبقى طالما فيه فلاح بيشتغل عامل تراحيل وموش لاقى ياكل وفيه واحد بيكسب فى السنة كام نص مليون جنيه وبيجيب العشا بتاعه من مكتبه من باريس بالطيارة يبقى لابد يكون ، فيه صراع طبقى والا اذا ماكنش فيه صراع طبقى مايبقاش هذا الشعب شعب حى ولكن معرفتنا أن هذا الشعب شعب حى يكافح وقاتل وقبل الثورة فيه قتلى فى اراضى البدراوى كان فيه قتلى كلنا نعرف حصل ازاى ان الفلاحين ثاروا من أجل كرامتهم ومن أجل انسانيتهم .

« فى كفور نجم كان فيه قتلى فى مناطق مختلفة ، كان فيه قتلى رغم التحكم ورغم انه كان معروف ان اللى حايعصى يتخرب بيته لأن هؤلاء الناس هم أسياد البلد اذن .. كان فيه صراع طبقى مانقدرش نقول انى لما بقول ان فيه صراع أنا باعمل صراع طبقى فى البلد انا من أول ما نشأت فى هذا البلد وانا طالب شاعر ان فيه صراع طبقى وانا فى ثانوى شاعر ان فيه صراع طبقى وأنا بعد كده ، فى كلية الحقوق كنت شاعر ان فيه صراع طبقى بعد كده وانا فى الجيش لم انعزل عن هذا الشعب كنت شاعر ان فيه صراع طبقى لأن كان فيه ظلم اجتماعى وكان فيه طبقة تسود وتتحكم وكان بقية الناس كلهم بيشعروا بأنهم حرموا من أبسط الحقوق .

« طبعا الصراع الطبقى كان موجود دائما وانا من اول يوم من ايام الثورة كنت اشعر بهذا الصراع الطبقى ومن الدوافع التى دعتنا الى ان نعمل على وضع قانون الاصلاح الزراعى موضع

التنفيذ من اول يوم هو هذا الصراع وهذا التناقض الكبير الموجود بين فئات الشعب ، أقليه بناحد كل شيء واغلبية محرومة من كل شيء » .

لكل هذه المعاني صدر قانون الاصلاح الزراعى ، وكان القضاء على الاقطاع هو المبدأ الثانى من مبادىء الثورة الستة بعد القضاء على الاستعمار ..

وفى التطبيق بدأ عبد الناصر بالاقطاع وفق مخطط لذلك ذكره فى ميثاق العمل الوطنى عندما قال يصف هذه الفترة المبكرة من عمر الثورة المصرية ، ويحلل ما قامت به وأسبابه ودوافعه **« وبعد النصر الثورى العظيم صباح ٢٣ يوليو ، وفى طريق الشعب الى التقدم الثورى ، داست الجموع المنتصرة باقدامها بقايا العهد الملكى الدخيل ، ودكت حصون الاقطاع ، واجتثت جذور الرجعية . لقد كانت تلك كلها الركائز التى ثبت الاستعمار عليها وجوده فوق ارضنا ، وبانقضاض شعبنا عليها وتدميرها فان الوجود الاستعمارى ، فقد حلقات اتصاله بأرض الوطن الطاهرة ، ومن ثم كانت الخطوة الباقية هى ارغام قواته على الرحيل وراء البحر بعد أن طوت أعلامها ، وأبتلعت كبرياءها » ..**

* * *

يتحدث جمال عبد الناصر ويروى بالتفصيل قصة قانون الاصلاح الزراعى الأول ..

اجتمع عبد الناصر بفؤاد سراج الدين ٤ اجتماعات ، ورفض حزب الوفد مشروع قانون تحديد الملكية بأصرار .

اقيلت وزارة على ماهر بسبب رفضها أن تحدد الملكية الزراعية ..

كانت معركة الاصلاح الزراعى هى بداية لمعركة مواجهة مع الراسمالية المصرية بعد أن رحل الاحتلال بعد ذلك .. ولم يكن هو الثورة الاجتماعية وربما كان موقف الأحزاب من هذا القانون هو الذى دفع عبد الناصر الى أن يستمر فى الحكم لينفذ البرنامج الذى قام بثورته من اجله ، والذى عجزت عنه الأحزاب ، وظهر تخاذلها عندما اصطدمت ببدايته ..

يروى جمال عبد الناصر هذه الحكاية فيقول (١) :

« تجربة ٢٣ يوليو وانا لما اقول على هذه التجربة اللى مرت فى العشر سنين اللى فاتت أقولها علشان نشوف الدروس اللى احنا قابلناها يوم ٢٣ يوليو .. لم يكن فى خاطرنا بأى حال من الأحوال ان نحكم لم يكن فى خاطرنا بأى حال من الأحوال ان نستولى على الحكومة ولكنا كنا نعبر عن أمل الشعب فى القضاء على الملكية الفاسدة والقضاء على حكم القصور وحكم الحاشية وحكم السفارات الأجنبية وحكم اعوان الاستعمار ولكن لم يكن فى خاطرنا ابدا ان نحكم ، كنا نعتقد اننا قد نستطيع أن ننفذ المبدأ السادس أو الهدف السادس من أهداف الثورة وهو اقامة حياة ديمقراطية سليمة فى أسرع وقت حتى تقوم حياة ديمقراطية نطمئن لها ويطمئن لها الشعب .

« كان بيبان لنا هذا العمل من أول يوم ايه عمل سهل خصوصا بعد ما خرج الملك وبعد ماتخلصنا من قوة أو سلطة القصر .. فى أول ايام الثورة طلبنا من الأحزاب أن تستعد لتتولى السلطة وطلبنا من حزب الوفد أن يطهر نفسه من المستغلين ثم طلبنا منه أن

---

(١) ٤ فبراير ١٩٦٢ خطابه فى افتتاح اللجنة التحضيرية

يستعد ليتولى الحكم باعتباره كان قبل كده يمثل الأغلبية ولكن كان لنا طلب واحد وهو اننا حين ننفذ الهدف السادس أو حين نضع الهدف السادس من أهداف الثورة موضع التنفيذ وهو اقامة حياة ديمقراطية سليمة لم يكن لنا بأى حال من الأحوال أن نهمل الأهداف الخمسة الأخرى ، الأهداف التى تقضى بالقضاء على الاستعمار وأعوان الاستعمار والقضاء على الاقطاع والقضاء على الاحتكار والقضاء على سيطرة رأس المال واقامة عدالة اجتماعية واقامة جيش وطنى فطالبنا ان تتعهد الأحزاب أو يتعهد الوفد بالذات بوضع هذه الأهداف موضع التنفيذ .

« وكانت البلورة الأولى لاقامة حياة اجتماعية سليمة أو اقامة عدالة اجتماعية البلورة كانت تحديد الملكية أو تنفيذ قانون تحديد الملكية ، حصلت اتصالات مع الوفد . اجتمعت مع فؤاد سراج الدين أربع مرات من أجل بحث هذا الموضوع ، اجتمع مجلس ادارة الوفد مرة واثنين وثلاثة وأربعة ليبحث طلبنا ، طلبنا كان تحديد الملكية ، تحديد الملكية بمائتى فدان ومائة فدان للأبناء يعنى تحديد الملكية كان بـ ٣٠٠ فدان ، كانت ايه الملكية .. طوال هذه الاجتماعات كانت هناك محاولات من جانبنا لاقناعهم وكانت هناك محاولات من جانبهم لاقناعنا .

« كنا بنطالب بتحديد الملكية وتوزيع الأراضى على الفلاحين على أساس أن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى تحرر الفلاح الذى نشأ فى الأرض ملازم للأرض والذى اعتبر سلعة فى الأرض عبد للأرض ملك للمالك ملك للاقطاعى .

« هم كانوا بينظروا للأمر نظرة أخرى كانوا بيقولوا اذا كنتم عاوزين تحددوا الملكية ، طيب ما تفكروا فى أساليب آخر فكروا فى الضرائب التصاعدية والضرائب التصاعدية قد تساعدكم فى رفع دخل الخزانة وتساعد فى رفع ميزانية البلاد .

« وكان مفهوم بيختلف عن مفهوم .. احنا كنا بنقول ان احنا مش عايزين فلوس للخزانة ولكنا نريد أن نحرر الانسان .. هم ماكانوش بيفهموا معنى تحرير الانسان والكلام اللى احنا بنقوله بيعتبروه كلام شعارات .. كلام مبيجيش عنه ناتج ولا عائد ولكن الناتج والعائد ممكن ييجى من الضرائب التصاعدية وعلى هـذا الأساس لم نستطيع أن نتفق .. ما اتفقناش أبدا .. هم كانوا بيفكروا بعقلية ، واحنا كنا بنفكر بعقلية احنا كنا بنقول نريد للفلاح أن يتملك حتى يكون حر ويستطيع انه يقول أيوه أو لأ طالما هو يتملك الأرض يشعر بحريته .. والحرية مش معناها بأى حال من الأحوال برلمان وقبة برلمان وشعارات وديموقراطية ولكن الحرية هى فى حرية الفرد اذا استطاع الفرد انه يقول لأ سيبقى حر .. لكن الفرد اللى ملازم للأرض واللى ملازم للاقطاعى واللى بيشتغل فى الأرض مع الاقطاعى زيه زى البهايم اللى موجودة عنده لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يشعر بالحرية ولا يمكن الا أن يكون تابعا للاقطاعى وتابعا لصاحب الأرض يسير وفق هوى صاحب الأرض وليست لارادته أى قيمة .

« رفضوا هم تحديد الملكية التى طلبناها .. رفضوا أن يعودوا الى الحكم على أساس تحديد الملكية طبعا احنا كنا نصمم على تحديد الملكية وكان الأمر بالنسبة لى فى هذه الايام غريب كل الغرابة ولكن بعد كده طبعا تبينت أن العملية لا تحتاج الى غرابة مافيهاش ألغاز ومافيهاش عقد بأى حال من الأحوال ازاى الواحد يعقـد يتفاوض مع الاقطاعى وصاحب الأرض علشان تحديد الملكية ويطلب منه صك فى أخذ ارضه وتوزيع أملاكه .. وكان حزب الوفد اللى فى هذا الوقت حزب يمثل طبقة من ملاك الأرض .. من طبقـة الاقطاعيين وده الطبيعى انهم يرفضوا الوضع الغير طبيعى .. انهم يقبلوا الوضع الطبيعى انهم يرفضوا هذا الكلام .. واحنا فطنا فى الآخر الى أن احنا كنا بسطاء جدا حينما طلبنا من الاقطاع وكان

عندنا ثقة كبيرة فيهم حينما طلبنا من الاقطاع أن يقبل بنفسه أن يوقع صك القضاء على الاقطاع وتحرير الأرض وتحرير الفلاح لأن معنى هذا حتى من الناحية السياسية القضاء على الحزب نفسه لأن الحزب كان بيعتمد على الاقطاعيين .. وكان بيعتمد على النفوذ الاقطاعى .. والاقطاعيين فى كل دائرة وفى كل مديرية فى هذا الوقت كانوا بيعتمدوا على الفلاحين اللى بيشتغلوا عندهم .. انهم يدوهم أصواتهم .

« بعد كده كان لابد لنا أن نأخذ خطوة حاسمة فى الموضوع .. وأصبحت معركة قانون الاصلاح الزراعى فى أول الثورة وكلكم تعرفوا .. أصبحت معركة عنيفة لأن فى الوقت اللى احنا كنا بنتكلم والوقت اللى احنا كنا بنتفاوض كانوا أصحاب الأرض بيعملوا رابطة .. كان رئيس الحكومة فى هذا الوقت يعطف على أصحاب الأرض .. كان مجلس الوصاية أيضا فى جانب أصحاب الأرض .. وعقدت هنا فى مجلس الوزراء اجتماع مع مجلس الوصاية من أجل اقناعه بقانون الاصلاح الزراعى .. ولكن أيضا مجلس الوصاية كان يريد أن يقنعنا بشىء ضد قانون الاصلاح الزراعى .

« ولم يكن الاصلاح الزراعى فى ذلك الوقت هو الثورة الاجتماعية ولكن الاصلاح الزراعى فى ذلك الوقت كان دليلا على الحاجة للثورة الاجتماعية وعلى الالحاح فى طلبها .

« اجتمع مجلس الثورة بعد كده وقرر اقالة الوزارة المدنية الموجودة التى كان يرأسها على ماهر واقامة وزارة أخرى تنفذ قانون الاصلاح الزراعى واقيلت الوزارة ونفذ قانون الاصلاح الزراعى .

« بتنفيذ قانون الاصلاح الزراعى .. مرينا فى معركة تدل على صعوبة الثورة الاجتماعية .. الثورة السياسية أسهل بكثير من الثورة الاجتماعية .. وزى ماقلت دلوقتى لم تكن الثورة الاجتماعية

بأى حال من الأحوال هى قانون الاصــلاح الزراعى ولكن قانون الاصلاح الزراعى . كان تعبيرا عن الالحاح وكان تعبيرا عن الحاجة الى هذه الثورة الاجتماعية وكان تعبيرا عن آمال الفلاح وكفــاحه الطويل من أجل التحرر من ربقة الاقطاع .

« بعد كده دخلنا فى معارك مستمرة بدأنا اول معركة من أجل تنفيذ الهدف الأول من اهداف الثورة .. القضاء على الاستعمار واعوانه .. والقضاء على الاستعمار واعوانه معناه ان ندخل مع الانجليز معارك مستمرة سواء فى الناحية السياسية أو فى منطقــة القنال اذا دعا الأمر الى حرب العصابات دخلنا معارك مع الانجليز من اجل الجلاء .. دخلنا معارك مع الانجليز من أجل الاستقلال .

« كان ايه موقف الرجعية واحنا نجابه الانجليز ســواء فى الناحية السياسية أو نجابههم فى منطقة القنال .

« الرجعية كانت دائما متخوفة .. الرجعية كانت دائما تعتقد ان المساومة هى السبيل الوحيد للحصول على اتفاق او بأى طريق كان من الانجليز .. والثورة الأصيلة لا يمكن بأى حال من الأحوال ان تعرف المساومة .

* * *

وانا اذكر من اول ايام الاتفاق مع الانجليز والحملات اللى بدات على الانجليز وانا شفت الناس اللى كانوا بيتعاونوا مع الانجليز شفت واحد .. شفت عبود مثلا .. **عبود كان بيقول لى يعنى انت صغير يا جمال بيه انت مش عارف الانجليز ابدا** .. الانجليز دول بيدوخوا الدنيا ازاى احنا حانقف قصاد الانجليز واذا كنت بتتفاوض مع الانجليز أو بتتكلم مع الانجليز ما تنساش ان دول الانجليز .. الانجليز اللى كسبوا الحرب العالمية الثانية .. الانجليز اللى دوخوا المانيا .. الانجليز اللى عملوا .. الانجليز اللى سووا .

« اذن الواقع اللى كان موجود فى بلدنا أو التاريخ اللى كان موجود فى بلدنا كان له اثر ، السياسيين الآخرين كانوا بيعتبروا ان منطق المساومة هو المنطق المطلوب » .

« كانت الرجعية لغاية هذا الوقت تعتقد ان السفير الانجليزى أو الامريكانى يستطيع انه يؤثر أو يستطيع انه يكون له دخل فى الوزارة .. وكلنا نعرف قبل الثورة كل شهرين ثلاثة كانت بتيجى وزارة ويوم السفير البريطانى ما الغى ميعاده مع على ماهر قبل الثورة بست أشهر سقطت الوزارة » .

« كانت الرجعية لا زالت متشبعة بهذه الروح وكانت الرجعية لا زالت تجد فى الانجليز حماية لها وحماية لسيطرتها .. الا انه باستمرار فى الماضى كان الانجليز يحمون الرجعية ويعتبرون الرجعيين اصدقاءهم الطبيعيين وهم رجالهم » .

* * *

يروى المهندس سيد مرعى بعد ذلك حكاية الاستيلاء على الأرض فيقول (١) :

فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٥٢ وقع وزير الزراعة ١١٢ رسالة وجهها الى مثل هذا العدد من الملاك الذين قررت اللجنة العليا الاستيلاء على الزائد من أراضيهم .

وتعد هذه الرسالة التى تحمل رقم ١ فى ملف الرسائل وثيقة تاريخية وهذا نصها :

السيد

تنفيذا للمادة ١ ، ٢ ، ٣ من قانون الاصلاح الزراعى رقم ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ قد قررت اللجنة العليا للاصلاح الزراعى أن تستولى على المساحة التى حددها القانون من أرضكم .

وقد انتدبت اللجنة السيد . . . . مندوبا عنها للتعرف على المنطقة ومعاينة الأراضى . سواء أكانت مؤجرة او منزرعة

(١) كتاب الاصلاح الزراعى فى مصر

على الذمة وذلك حتى يتسلم من اللجنة الفرعية محاضر الحصر والتقدير التى حددتها المادة ١٢ من هذا القانون .

واننا نهيب بوطنيتكم أن تقوموا بتسهيل مهمته ومعاونته فى العمل على زيادة الانتاج ، اذ أننا فى عهد يجب أن تتضافر فيه الجهود لزيادة انتاجنا القومى والمحافظة على الثروة الزراعية .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام »»

وفى الساعة الثالثة من صباح هذا اليوم ، وكانت أنوار الفجر قد بدت فى الأفق انطلق من ديوان وزارة الزراعة فى الدقى ٢٢ شخصا يحمل كل منهم اسم منطقة من مناطق الجمهورية وبيانا بالأراضى التى يتضمنها قرار الاستيلاء ويحمل معه أيضا شيكا على البنك الأهلى .

اما هؤلاء الأشخاص فهم مندوبو الحكومة الذين وقع الاختيار عليهم ليحملوا راية الاصلاح الزراعى وليضطلعوا بتفيذ القانون كل فى المنطقة التى وكلت اليه .

اما المناطق فقد حددت بحسب الأراضى التى تتجاوز قطعها بقدر الامكان وتتراوح مساحتها بين ألفى فدان وعشرة آلاف وكان بعضها غريبا فى تكوينه ، ففى احدى مديريات الصعيد مثلا امتدت منطقة أحد المندوبين عشرات من الكيلو مترات كان عليه أن يزرعها ويستولى على قطعة منها يفصلها عن الأخرى سفر ساعة وثالثة يفصلها عن هذه مسيرة ساعات .. وهكذا .

اما الشيك الذى زود به كل مندوب من هؤلاء ، كان يعتمد عليه فى مواجهة اية صعوبة فكان بمبلغ يدهش له الناس اليوم اذ كان شيكا بخمسين جنيها .. وذلك لأن وزارة المالية لم تصرح فى ذلك الوقت بأكثر من ١١٠٠ جنيه لتنفيذ مشروع الاصلاح الزراعى .

واذا قورن هذا المبلغ بميزانية العام الاول بعد تمامها ، والتى

تضمنت ارقاما تقدر بملايين الجنيهات فسيستولى على المرء العجب لهذا الابتداء المتواضع كل التواضع .

سافر مندوبو الحكومة يتحسسون طريقهم الى مناطقهم حتى اذا ما وصلوا اليها وجدوا أمامهم مشاكل لا بد لها من حل عاجل ، فعشرات من ماكينات الرى توقفت لأن عطلا مفاجئا قد أصابها او لأن المالك اخطر شركة البترول التى يعاملها بأنه أقفل حسابه معها بعد الاستيلاء على الأرض ؛ هذا الى أن الوف الفلاحين من المستأجرين اخذوا يطالبون بالسماد والبذور ونفقات الحرث والرى بعد أن توقف الملاك عن امدادهم بما يريدون ، والموسم الزراعى حل فعلا ولا سبيل الى انتظار أو امهال وعمليات التأجير تحتاج الى موظفين ودفاتر وعقود ومواصلات ومعاينات .

وفى وسط هذا الخضم بحث مندوبو الحكومة فى جيوبهم فلم يجد الواحد منهم غير الخمسين جنيها التى اخذت تتبخر فى دقائق وبقى الحال كما هو فلم تصلح ماكينات الرى بالمنطقة ولم يصل الديزل والسولار اليها ، ولم تتحرك عصا الساحر لتحضر السماد والبذور .

وامطرت القاهرة بوابل من البرقيات وصلت جميعها وكأنها كانت على ميعاد وصيغت فى عبارة واحدة تطلب البذور والتقاوى والسلف او المصاريف النقدية .

كانت الهيئة التنفيذية تتألف فى ذلك الوقت من ثلاثة أقسام . قسم يتولى سكرتارية اللجنة العليا ، ويتلقى ذلك السيل من المشاكل لينسقها ويعرضها ويحصل على حلولها ، وقسم يستولى على الأرض الزائدة ، وقسم يدير المزارع ويشرف على تأجيرها .

وقد لجأت الهيئة التنفيذية الى بنك التسليف الزراعى تطلب منه أن يسعف المندوبين بحاجتهم .. ونظر البنك فى دهشة الى هؤلاء الذين طلبوا منه أن يقرضهم مئات الألوف من الجنيهات وسأل

اذا كان لديهم من الضمانات ما يجعله يطمئن ولما لم يجد لديهم شيئا .. صرف النظر عنهم .

ثم لجأت الهيئة التنفيذية الى مصلحة الوقود فى مد ماكينات الرى فى أراضى الاصلاح بحاجتها من الوقود ، فنظرت مصلحة الوقود فى دهشة الى هذا الطلب الذى لم يصحبه نفاصيل الاستهلاك السابق واللاحق ولا ماركات الماكينات ولا عمرها .. الى آخر هذه التفاصيل التى تحتاج الى سنوات لاعدادها .

ولم يقف الأمر عند ذلك بل لجأت الهيئة التنفيذية الى مصالح حكومية أخرى لتدبر لها قطع الغيار ومعدات النقل فى المزارع وغير هذا نذاك مما تتطلبه ادارة العمل . وهزت المصالح الحكومية رؤوسها آسفة لأن هذه الطلبات لم تستوف اجراءاتها الروتينية ، وأهم ركن لم تستوفه منها أنه لا يوجد بند فى الميزانية يسمح بصرف هذه الطلبات منه .. على فرض قبولها .

كل هذا لم يثن من عزم الهيئة فلجأت الى ديوان الموظفين تستأذنه فى تعيين العدد اللازم من المفتشين والنظار والكتبة الذين لا بد لمندوبى الحكومة منهم للاشراف على هذه المساحات الواسعة من الأرض ، والتى يجب أن تؤجر فورا لحوالى ستين أو سبعين الف مستأجر ، فقال انه لابد أن يسبقه اعتماد فى الميزانية وربط درجات لهذه الوظائف .

وفى وسط هذه الأعاصير المظلمة لاح بريق امل ، فقد اخذ مندوبو الحكومة يحصلون ايجار الأراضى من الفلاحين ، ذلك الايجار الذى يسلم للصيارف وهؤلاء بدورهم يسلمونه لخزائن المديريات .

ولما أرادت الهيئة التنفيذية أن تعتمد على هذه المبالغ فى تسيير امورها عجبت المالية من جهل الهيئة التنفيذية ، وقالت ان المبالغ المحصلة قد ادرجت فى ايرادات الدولة ولا سبيل الى الصرف منها الا بقانون .

وتواضع الاصلاح الزراعى وطلب من وزارة المالية بعض دفاتر ومساطر وأقلام رصاص يستعملها المندوبون فى قيد ما يحصلون عليه من اموال الايجارات حتى يصل الصرف على الاقل ، وأعربت المالية عن أسفها مرة أخرى لعدم استطاعتها استجابة هذا الطلب لأنها لم تحسب له حسابات عندما وضعت ميزانية الادوات الكتابية .

والذى زاد الأمور شدة وتعقيداً أن كثيرا من الملاك لجأوا الى مجلس الدولة والى المحاكم العادية يطلبون الغاء قرار الاستيلاء على اراضيها متذرعين بشتى الحجج .. ألم يقل القانون ان الملكيات التى تخضع للاستيلاء فى العام الأول تكون أكبر الملكيات ، وفى العام الثانى التى تليها فى المساحة وهكذا . وهذا المالك أو ذاك يرى أن ما استولى عليه من أرضه يقل فى مساحته عن أرض زيد أو عمرو .. واذن فليلجأ الى القضاء ولتكف يد الاصلاح الزراعى عن الاستيلاء على أرضه هو .

وهكذا نبتت عشرات المشاكل وعشرات الدعاوى .

وبدأ فى وقت من الأوقات أن الصعوبات المتكاثفة من الضخامة بحيث يميد تحتها قانون الاصلاح الزراعى مهما بدت الحاجة اليه مأساة . مقاومة من الروتين الحكومى ..!

مقاومة بعض الملاك ...!

مقاومة من الظروف الكثيرة التى اشرنا الى بعضها ولم نشر الى البعض الآخر ..!

وأهم مثال لذلك أنه لا يوجد سجل عينى لأرضنا الزراعية يثبت تطور الملكيات الزراعية ، اذ ان كثيرا منها يثبت بأسماء الجدود ولم تدون التصرفات التالية لذلك .

ولكن الذين شرعوا قانون الاصلاح الزراعى كانوا يؤمنـــون به ايمانا لا تزعزعه الصعوبات مهما تكاثفت ، والقـــانون اجراء ثورى

ترتب على حركة الجيش وتغيرت من أجل صدوره وزارة ..، وما كان يمكن للذين أصدروه أن يتركوه يهوى على الصورة التى بدت كآبتها فى الظاهر .

وهنا اخذت حكومة الثورة على عاتقها مهمتين :

الأولى : الخروج بالاصلاح الزراعى عن دائرة الروتين الحكومى وذلك باصدار القانون رقم ١٣١ لسنة ١٩٥٣ ، وتعديل المادة ١٢ والمادة ١٣ .

الثانية : عمل كل شيء للمحافظة على الانتاج وتخطى جميع العقبات التى قد تؤثر التغافل عنها فى محصول هذه المزارع المستولى عليها .

وبدأ التنفيذ .. فضمنت الحكومة الاصلاح الزراعى لدى بنك التسليف فى مليون جنيه ، وأبيح للجنة العليا حق التعيين فى وظائف الكتبة والنظار والمفتشين الزراعيين فى حدود مرتبات معينة .

وكان الاعتماد المالى بمثابة النور الأخضر امام بنك التسليف الزراعى الذى اخذ يمون المناطق بحاجتها حتى بلغت قيمة ما سحب منه فى العام الأول ٦١١ الف جنيه .

وقامت اللجنة العليا بتجربة الاعتماد على وطنية بعض كبار الملاك فى هذه الفترة المحرجة ، فنجحت التجربة وانتصرت المصلحة القومية على كل اعتبار آخر . اذ ظل بعض الملاك الكبار ينفقون على الارض المستولى عليها حتى وصل حساب الوقود وحده لجملة ملاك ١٨٠ ألف جنيه .

وقد صدر قرار بالاستيلاء على الماكينات الزراعية للرى وغيرها من الماكينات اللازمة لأعمال الزراعة ، ثم صدر قرار بالاستيلاء على قطع الغيار التى حبسها البعض فى مخازنهم .

وأنشئت لجنة قضائية برياسة مستشار وعضوية مندوبين من مجلس الدولة ، والشهر العقارى والمساحة والاصلاح الزراعى للنظر

فى المنازعات التى تنشأ بين الاصلاح والملاك بسبب القانون على الا تكون قراراتها نهائية الا بعد تصديق اللجنة العليا .

وهكذا حلت اللجنة العليا المشاكل الكبرى التى كانت تواجهها ونابت حقا عن الدوائر الزراعية الكبرى فى الاشراف على مساحات الأرض المستولى عليها .

ولقد أخذ خبراء الزراعة والاقتصاد فى مصر والخارج يراقبون تنفيذ خطوات المشروع ، واخذ النقد يوجه اليه .. فمن قائل أن اللجنة العليا لن تتمكن من ادارة هذه المساحات الواسعة مؤكدا أن التوزيع سيكون تفتيتا للملكية وبالتالى سيؤدى الى انخفاض الانتاج ، ومن قائل أن المستأجرين لن يدفعوا ما عليهم من ايجار أو ما اقترضوه من أموال ، وأن اللجنة لن تسلم السندات وفوائدها الى الملاك . وزعم البعض انه كان من الاسلم ان تترك الارض فى حيازة الملاك اكتفاء بزيادة الضريبة المفروضة عليها . كل هذا والهيئة التنفيذية ماضية فى عملها ليلا ونهارا تحت اشراف اللجنة العليا .

ودارت عجلة الاصلاح دورتها دون هوادة لتعيد الحق الى أصحابه والأرض لمستحقيها ، ومضت فى حركتها لا تعرف الملل فحياة الأرض لا تعترف الا بالكفاح والمجهود المتواصل .

ولقد مر مشروع الاصلاح الزراعى بمراحل عديدة فى تنفيذه فكان فى تطور مستمر ينتقل من عملية الى أخرى يوما بعد يوم .

* * *

و ...

بذلك انتهت ثانى معارك جمال عبد الناصر كانت معركته الأولى قيام الثورة .. أما المعركة الثانية فكانت أن يصبح الفلاح مالكا للأرض التى رواها بعرقه ، وبدمائه هو وآبائه وأجداده .. وظلت قضية تحرير عامل التراحيلة تشغله حتى مات ..

وبدأت معركته الثانية .. الجلاء ، وتطهير الوطن من الاستعمار .. ثم كانت معركته الثالثة .. وهى ما أطلق عليه اسم صفقة الاسلحة .

أولى المعارك .. مع الاستعمار

الزمان : شهر سبتمبر .. الشهر الذى شهد نهاية البطل ، وعلى وجه التحديد يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ ..

المناسبة : افتتاح معرض القوات المسلحة ..

المكان : ارض الجزيرة بالقاهرة ..

كانت المناسبة عادية جدا ، جمال عبد الناصر سيفتتح المعرض الذى اقامته القوات المسلحة وسوف يلقى خطابا فى الضباط ولكن الاستعداد للمناسبة كان غير عادى ، فقد دعى لحضور حفل الافتتاح حشد كبير من المراسلين الاجانب . والصحفيين العالميين ، والعرب ، والمصريين ..

وعندما التقى هذا الحشد الكبير من رجال الصحافة ، كانوا يتوقعون ان شيئا غير عادى يمكن ان يحدث ، وراحوا يعلنون توقعاتهم ، واكثرها طموحا كانت تقول ان عبد الناصر سوف يعلن شيئا غير عادى حول مؤتمر باندونج الذى حضره رؤساء دول آسيا وافريقيا فى ١٩ ابريل من نفس العام ..

وبعضهم كان يتحدث حول شىء آخر ، هو اعتداء ٢٨ فبراير الذى قامت به اسرائيل مباغتة لقوات على الحدود ، واستشهد فيه ٢٩ من رجالنا المصريين والفلسطينيين ، وكان بداية لسلسلة

من الاعتداءات ، والعمليات الحربية ، وهو الاعتداء الذى ابلغت مصر به مجلس الامن ، وقال عنه المجلس بانه اعتداء مدبر ووحشى على جنود آمنين .. وهو نفس الاعتداء الذى شكر بن جوريون من اجله افرادا من الجيش الاسرائيلى ، وقال بعده انه يريد فرض السلام ، واجبار العرب على الامر الواقع ..

هكذا كانت تدور المناقشة بين الصحفيين والمراسلين الذين وجدوا انهم قد التقوا فجاة داخل معرض القوات المسلحة بالجزيرة ، وقيل لهم ان جمال عبد الناصر رئيس الوزراء سيلقى خطابا هاما جدا ..

كان عدد منهم قد التقى بجمال عبد الناصر ، فى مناسبة شبيهة بتلك المناسبة ..

ففى ٣١ مارس تجمع عدد من الصحفيين والمراسلين وسمعوا خطاب جمال عبد الناصر ـ قبل أن يذهب لحضور مؤتمر باندونج ـ فى افتتاح الموسم الثقافى لرجال القوات المسلحة ..

وفى ذلك اللقاء كان حديث عبد الناصر عن القوات المسلحة ذاتها ، وعن بناء هذه القوات حتى تستطيع ان تحمى مصر بعيدا عن الدخول فى أحلاف عسكرية مع الغرب .. وبعيدا عن معاهدات الدفاع المشترك « لاننى اعتبر ان مصر فى وقتها الحالى يجب ان تتخلص من كل نفوذ اجنبى تخلصا كاملا ، حتى تستطيع أن تقف على اقدامها ، وبعد ذلك اذا وجدت مصلحتها أن تدخل مع أى دولة فى اتفاق دخول الند للند فانها ستدخل لتحقق مصلحتها ولا تدخل ابدا نتيجة لضغط ، لا تدخل وهى شاعرة انها ليست قوية ، فنحن من الناحية الاقتصادية لسنا اقوياء » .

« ان المعونة الامريكية التى حصلنا عليها فى العام الماضى وهى ٤٠ مليون دولار قد وجهناها لا على انها اساس من اسس الاقتصاد . بل الى نواحى الخدمات لشق الطرق ، واصلاح

الموانى ، وجهناها الى تقصير المدة اللازمة لتوصيل المياه النقية الى القرى ، فنحن لم نبن عليها ابدا اقتصادنا القومى » .

« نحن اليوم وضعنا يختلف لأننا نمر بفترة حاسمة من تاريخنا ونعتبر ان هذه الفترة الحاسمة اذا لم توجه التوجيه السليم ، فلن نستطيع تحقيق هدف الثورة الخاص بالوصول الى **مجتمع اشتراكى** » يرتفع فيه مستوى المعيشة ويقوى فيه الوطن اقتصاديا ، وانتاجيا » .

وقبلها كان جمال عبد الناصر يلح على هذه القضية ، فعندما عقد مؤتمرا صحفيا فى كفر الدوار اثناء رحلته لتوزيع الأراضى على الفلاحين فى ١٩ ابريل سنة ١٩٥٤ قال فيه « ان مصر ستعمل كل ما فى وسعها لتقوية القوات المسلحة ، وتزويدها بالأسلحة الثقيلة برغم كل الصعوبات التى تواجهها فى هذا السبيل » وأوضح أن الأسلحة الثقيلة لا يمكن الحصول عليها الا من الدول الكبرى ، وأن الدول الغربية الكبرى تمتنع عن تزويد مصر بهذا النوع من الأسلحة . .

وقبلها كان قد وضع ضمن المبادىء الستة للثورة « فى مواجهة المؤامرات لاضعاف الجيش ، واستخدام ما تبقى من قوته لتهديد الجبهة الداخلية ، المتحفزة للثورة ، كان الهدف الخامس هو اقامة جيش وطنى قوى » .

* * *

فى الموعد المحدد حضر جمال عبد الناصر ، وبدأ يتكلم ، وانفاس المندوبين الصحفيين ، والمراسلين مشدودة تنتظر الشىء الهام الذى توقعوه . . وبدأ عبد الناصر خطابه قائلا انه يتكلم الى الوطن كله ، والى أبناء مصر كلها . . واكد سياسة ثورة مصر المستقلة ، البعيدة عن السيطرة ، المتخلصة من النفوذ الأجنبى ، ثم بدأ يشرح قصة تسليح الجيش . . التى بدأت عقب الثورة مباشرة . .

« فحينما قامت الثورة التجأنا الى كل الدول .. والتجأنا الى كل ميدان من اجل تسليح هذا الجيش ..

« **التجأنا الى انجلترا** ، والتجأنا الى فرنسا ، والتجأنا الى امريكا ، والتجأنا الى باقى الدول من اجل تسليح الجيش .. من اجل السلام ومن اجل الدفاع ، فماذا اخذنا ؟ الحقيقة اننا لم نأخذ الا مطالبات ، فقد ارادوا أن يسلح الجيش بعد ان نوقع على وثيقة ، وبعد أن نوقع على مواثيق .. واننا أعلنا اذا اردنا أو صممنا أن نسلح جيشنا من أجل حريتنا ، ومن اجل شخصيتنا المستقلة .. من أجل حياة ثورتنا .. ومن أجل عزة وطننا .. ومن اجل كرامة مصر .. واعلنا اننا لن نسلح الجيش على حساب استقلالنا .. اننا لن نسلح الجيش على حساب حريتنا ..

« **وطلبنا السلاح ، فماذا كانت النتيجة ؟** كانت النتيجة يا اخوانى قصة طويلة .. قصة مريرة .. واننى اذكر فى هذا الوقت .. اذكر وانا اتحدث اليكم أننا فى بعض الأحيان قد ارقنا ماء وجوهنا .. ولكننا لم نتخل أبدا عن مبادئنا .. اننا ارقنا ماء الوجوه .. ونحن نطلب السلاح ، ونحن نستجدى السلاح ، ولكننا فى نفس الوقت صممنا على المحافظة على المبادىء .. وصممنا على أن نحافظ على مثلنا العليا وماذا كانت النتيجة ؟ لم نستطع أبدا يا اخوانى ان نحقق هذا الهدف الأكبر الذى قامت هذه الثورة من أجل تحقيقه وهو اقامة جيش وطنى قوى ..

« فان **فرنسا** كانت تساومنا دائما ، تساومنا على شمال افريقيا .. وتقول لنا دائما اننا نعطيكم السلاح على شرط الا تنتقدوا موقفنا فى شمال افريقيا .. على شرط ان تتخلوا عن عروبتكم ، على شرط أن تتخلوا عن انسانيتكم .. على شرط أن نرى المذابح التى تحدث فى شمال افريقيا ونسكت عليها ، ونغمض العين عن عروبتنا ، وكيف نتخلى عن انسانيتنا ؟ اننا لا يمكن ابدا أن ننفصل عن عروبتنا ، واننا لا يمكن أن ننفصل عن انسانيتنا ..

« ولكن امداد فرنسا لنا بالسلاح كان دائما سيفا فوق رقابنا ، وكنت دائما يا اخوانى اهدد بقطع السلاح ، وكنت دائما يا اخوانى أهدد بتموين اسرائيل بالسلاح مع قطع السلاح عن مصر ..

« **هذه هى قصة فرنسا .. واقول لكم الآن قصة امريكا ..** منذ قامت الثورة ونحن نطالب بالسلاح .. ونحن نوعد بالسلاح وماذا كانت النتيجة ؟ كانت الوعود ، وعود مرتبطة بشروط ، نأخذ السلاح على اساس أن نوقع على ميثاق امن متبادل ، نأخذ السلاح على أساس أن نوقع على حلف من الأحلاف ، ورفضنا أن نوقع وثيقة الأمن المتبادل ، ورفضنا أن نوقع على حلف من الأحلاف ، ولم نستطع أبدا يا اخوانى أن نأخذ من أمريكا قطعة من السلاح ..

« **وماذا كانت قصة انجلترا ؟** كانت انجلترا تقول لنا انها مستعدة لتموييننا بالسلاح وكنا نقول لها اننا نقبل هذا شاكرين ، وماذا كانت النتيجة .. لقد موتتنا انجلترا بمقادير من السلاح لا تحقق هدفنا الذى قامت هذه الثورة من أجله ، وماذا كانت النتيجة ايها الاخوان ، كان الجيش المناوىء لنا يمون بالأسلحة من دول متعددة من العالم .

« **ان جيش اسرائيل** قد استطاع أن يأخذ أسلحة من انجلترا ، ومن فرنسا ، ومن بلجيكا ، ومن كندا ، ومن ايطاليا ، ومن دول أخرى متعددة ، وكان هذا الجيش يستطيع أن يجد دائما من يمونه بالسلاح .. وكنا نحن نقرأ فى الصحف الأجنبية ، سواء فى الصحف الأمريكية أو الصحف الفرنسية أن جيش اسرائيل يستطيع أن يهزم الجيوش العربية مجتمعة .. وقد قرأت فى الشهر الماضى يا اخوانى كثيرا من المقالات تحمل هذا المعنى : ان جيش اسرائيل يستطيع أن يهزم مصر . ان جيش اسرائيل يستطيع أن

يهزم العرب .. ان جيش اسرائيل متفوق فى السلاح .. ان جيش اسرائيل متفوق فى العتاد !

« هذا ما كانوا يقولونه فى صحفهم فنقول لهم اذا كنتم تشعرون بهذا فلماذا تمنعون عنا السلاح .. كنت أقول لهم هذا فماذا كانت النتيجة ؟ لقد تذرعت فرنسا بشعورنا نحو شمال افريقيا .. ومنعت عنا السلاح وحينما رأينا هذا : حينما رأينا هذا التحكم .. وحينما رأينا هذا النفوذ الذى يتحكم فينا ، وفى رقابنا قررنا أن نطالب جميع دول العالم بأن تمدنا بالسلاح بلا قيد ولا شرط ، وقدمت هذا وأنا أؤكد لهم أن هذه الأسلحة لن تستخدم فى العدوان ، ان هذه الأسلحة ستستخدم فى الدفاع ، اننا ليست لنا أية نوايا عدوانية .. ولكن نوايانا نوايا سلمية .. اننا نريد أن يكون لنا جيش حر قوى مستقل ، يسند هذا الوطن فى أهدافه الحرة المستقلة .. اننا نريد ان يكون لنا جيش قوى ، لا للعدوان ولكن للدفاع .

« قدمت هذا يا اخوانى باسم مصر الى امريكا ، الى انجلترا .. الى فرنسا ، الى روسيا ، الى تشيكوسلوفاكيا ، الى باقى الدول وانتظرت الرد فماذا كانت النتيجة » .

وظل المراسلون يسمعون القصة ، وهم يتعجلون نهايتها حتى قال عبد الناصر ..

« وصلتنى ردود من بعض هذه الدول بأننى يمكن أن أسلح الجيش بالأسلحة ولكن بشروط ورفضت هذه الشروط .. فهذا هدف من أهدافنا ، وقد قلت لكم اننا قد نستجدى السلاح ، وقد نطلب السلاح .. وقد نريق ماء وجهنا من أجل السلاح .. ولكننا لن نتخلى أبدا عن مبادئنا ..

« وانتظرنا حينما وصلنا رد على هذا الخطاب من حكومة تشيكوسلوفاكيا تقول انها مستعدة أن تموننا بالسلاح حسب

حاجتنا وحسب حاجة الجيش المصرى على أساس تجارى بحت ، وأن هذا التعامل يعتبر كأى تعامل تجارى آخر ، فقبلنا فى الحال هذا الاتفاق .

« ووقعت مصر فى الأسبوع الماضى اتفاقية تجارية مع تشيكوسلوفاكيا من أجل تموينا بالسلاح .. وهذه الاتفاقية تسمح لمصر بأن تدفع الثمن منتجات مصرية مثل القطن ومثل الأرز وقبلنا هذا العرض شاكرين ..

« واننا بهذا يا أخوانى نحقق هدفا من أهداف هذه الثورة وهو اقامة جيش وطنى قوى ، وأنا اليوم يا اخوانى وأنا أتكلم اليكم أشعر بالضجة التى قامت هنا وهناك .. قامت ضجة فى لندن ، وقامت ضجة فى واشنطن ، قامت هذه الضجة من أجل استمرار التحكم .. ومن أجل استمرار النفوذ » .

* * *

وعلى امتداد أيام الأسبوع التالى بعد هذا الاعلان ، كان المراسلون والصحفيون يطلبون لقاءات مع جمال عبد الناصر ، ويلحون فى مزيد من التفاصيل عن هذا الاجراء الذى وصفه جون فوستر دلاس وزير خارجية أمريكا عندما سمع به « بأنه اخطر اجراء منذ قيام حرب فيتنام » .

وكانت اجابات عبد الناصر تلقى مزيدا من الضوء على هذا القرار ..

حاولوا معرفة كمية الأسلحة فقال لهم ان ذلك سر عسكرى .. وحاولوا معرفة انواع الأسلحة فقال لهم ان نوع الأسلحة وكمية المواد التى سنتسلمها على وجه التحديد وبالضبط تعتبر سرا عسكريا .. وتبقى بعد ذلك جوانب من حكاية تسليح الجيش المصرى يمكن ان تتضح من خلال ردود جمال عبد الناصر على أسئلة المراسلين الاجانب فى الأيام التالية لهذا القرار .

● **التقى جمال عبد الناصر بمراسل محطة الاذاعة الأهلية الأمريكية فى ٣٠ سبتمبر وقال له :**

« عندما بدأنا فى البحث عن البلد الذى نحصل منه على أسلحة لتعزيز قوة دفاعنا ، كانت واشنطن أول عاصمة التجأنا اليها ، **وكان ذلك بعد قيام الثورة بثلاثة أشهر ، فى أكتوبر ١٩٥٢ .** ودارت محادثات وطال مداها ..

« وبعد ذلك تلقينا وعدا رسميا من موظفين امريكيين مسئولين بتزويدنا بالأسلحة ، بل طلب منا قائمة بما نحتاج اليه ، أو بعبارة أصح الحد الأدنى لما نحتاج اليه . وقد أعددنا القائمة وأرسلناها الى واشنطن لعمل ترتيبات تسلم الأسلحة ، وظلت هذه البعثة شهورا عديدة فى واشنطن ، وأخيرا عادت الى مصر خاوية الوفاض .

« وعلى الرغم من ذلك واصلنا محادثاتنا عن الأسلحة فتلقينا وعودا ، لكننا لم نحصل على اسلحة ..

« وفى ٣٠ يونيو ابلغنا الأمريكيون انهم موافقون من حيث المبدا ، ولكن حتى يومنا هذا لم تجر بيننا مباحثات فى تفاصيل الأسلحة ، ولم تبد لنا اية احتمالات لاجراء مقايضة مع امريكا ، ولم يكن فى الاستطاعة عمل اية ترتيبات بخصوص دفع نقود ، ولا يخفى عليكم اننا بحاجة الى كافة الموارد لبناء وطننا ، ورفع مستوى معيشة مواطنينا ، وليس لدينا عملة صعبة لأية اغراض اخرى ، وبالتالى عندما سعينا للحصول على الأسلحة كان لزاما علينا أن نحصل عليها بطريقة تناسبنا ، أى بالمقايضة ، ففى مقابل الاسلحة نقدم قطننا ، أو منتجاتنا التى يمكن تصديرها » .

● **وفى أول اكتوبر التقى جمال عبد الناصر بالمستر توم ليتل المدير العام لوكالة الأنباء العربية وقال له :**

ــ ان بريطانيا وعدت ان تسد حاجتنا من السلاح بعد حل مشكلة القنال ، فاتصلنا بها من جديد بعد الاتفاق فتسلمنا منها

عتادا كانت مصر قد تعاقدت عليه قبل الثورة ، اما الولايات المتحدة فلم يأتنا منها شيء سوى الأقوال والوعود ، فهي لم ترفض تزويدنا بالأسلحة ، لكننا لم نتلق هذه الأسلحة منها ، على اننا عقدنا اتفاقا مع فرنسا ، فقد قلت للسفير الفرنسي في القاهرة انه ما دامت بلاده تزود اسرائيل بالسلاح ، فانه يجب عليها امدادنا به أيضا . وتم الاتفاق على ذلك ، ولكن فرنسا ألغت هذا الاتفاق منذ اسبوعين ، وكانت تريد دائما أن نتعهد لها لقاء أسلحتها ان نغض الطرف عن شمال افريقيا . . انني طلبت السلاح من روسيا وتشيكوسلوفاكيا ، وقلت لسفيرى بريطانيا وأمريكا في شهر يونيو الماضي انه اذا لم يزودني بلداهما بالسلاح فانه يجب الحصول عليه من روسيا » .

● وفي نفس اليوم التقى عبد الناصر بمراسل جريدة التايمز في القاهرة ، وجاء في حديثه :

ـ ان الشعور بعدم الاطمئنان قد ازداد في الشهور الأخيرة ، ووجدت مصر انها لا تستطيع ان تعتمد على عون أجنبي ، وقد اقتنعت بأن من الضروري ، أن أدافع عن نفسي ، وعن شعبي دون الاعتماد على تصريح أو بيان ، ولهذا سعت مصر للحصول على اسلحة .

● وفي اليوم ذاته اول اكتوبر نشرت جريدة الديلي ميلي حديثا للرئيس جمال عبد الناصر جاء فيه :

ـ ان صفقة الأسلحة التي عقدتها مصر ليست لها علاقة بما على مصر من التزامات بمقتضى الاتفاق المصري البريطاني بشأن الجلاء وانه ليس للاسلحة التي ستحصل عليها مصر من تشيكوسلوفاكيا اية علاقة بسلامة قاعدة القنال .

● وفي يوم الأحد ٢ اكتوبر القى جمال عبد الناصر خطابا في

حفل تخريج دفعة أكتوبر ١٩٥٥ من طلبة الكلية الحربية قاله فيه :

ـ ان المخابرات المصرية استطاعت ان تحصل على وثيقة رسمية فرنسية تقول ان أمريكا وان انجلترا تمدان اسرائيل بالسلاح ، وتقول الوثيقة الفرنسية ان اهم معدات القوات العسكرية الاسرائيلية مصدرها امريكى بريطانى ، وها هى على سبيل المثال بعض المعدات التى حصلت عليها اسرائيل من بريطانيا : ٢٠ طائرة ميتور ، ٥٠ طائرة موستانج ، ٢٠ طائرة موسكيتو ، ٧ طائرات نقل ، و ١٠٠ عربة مصفحة شرمان ، و ١٥ عربة مصفحة تشرشل ، ١٠٠ مدفع عربة فاج هاون ، و ٧٠ مدفع ميدان ، وقالت ايضا هذه الوثيقة الرسمية الفرنسية ان هناك صفقات تعقد بين بريطانيا واسرائيل لبيعها طائرات ميتور ، ودبابات من طراز سنيتوريون ، وقالت ان أمريكا سلمت من جانبها الى اسرائيل ١٢ طائرة ب.ت ١٧ ، هذا ما حوته الوثيقة الفرنسية ، وهى طبعا لم تحو ما سلمته فرنسا نفسها الى اسرائيل ، وقد قرأنا فى الأسبوع الماضى فى احدى جرائد اسرائيل وهى جريدة دافار على وجه التحديد أن فرنسا تعاقدت مع اسرائيل على أن تسلمها ١٠٠ دبابة وتعاقدت ايضا على أن تسلمها عددا من طائرات المستير النفاثة » .

● **وفى حديث مع مراسل جريدة النيويورك تايمز فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٠ قال عبد الناصر :**

ـ الآن تعاقدت الصين معنا على شراء ما قيمته عشرة ملايين من الجنيهات من فائض محصول القطن ، وهى تدفع ٨٠٪ من قيمة المشتريات بالدولار ، و ٢٠٪ من فائض محصولنا من القطن للكتلة الشرقية .»

وقام الرئيس بقراءة أجزاء من صحف الولايات المتحدة احداها «الهيرالد تريبيون» وكانت تقول بأن اسرائيل تستطيع أن تهزم العرب ما لم يتسلموا أسلحة من الكتلة السوفيتية وقال هكذا لم نشر

ضجة عن مزايا اسرائيل الحربية عندما نشر ذلك ، ولكننا عندما اخذنا بنصيحة « الهيرالد تريبون » لاعادة التوازن فى الأسلحة حدثت ضجة ضخمة ضدنا فى الولايات المتحدة » .

● وفى حديث لمندوب وكالة انبـاء يونايتدبرس فى الشرق الأوسط فى ١١ أكتوبر قال عبد الناصر :

ــ ان الاتفاق التشيكوسلوفاكى المصرى لا ينطوى على اى نص كتابى أو شفوى بشأن هذه المسألة ، وستستخدم الأسلحة المشتراه للدفاع فقط ضد أى هجوم على أراضينا .

● وفى حديث نشرته صحيفة نيويورك بوست الأمريكية يوم ١٤ أكتوبر ١٩٥٥ للرئيس جمال عبد الناصر قال :

ــ ان مصر ستمضى فى تنفيذ تعاقدها بشأن صفقة الأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا لأن من واجب مصر أن تحصل على الأسلحة لتدافع عن نفسها ضد اسرائيل ..

● وهكذا كانت تركز صحف الغرب ، ووكالات الانباء على هذا الحدث الخطير الذى قلب موازين القوى فى الشرق الأوسط ..

كل هذه كانت مقدمة للحكاية السياسية التى احدثت تحولا جذريا فى علاقتنا لأول مرة مع الكتلة الشرقية .. فما هى الحكاية ..

لننقل الحكاية الكاملة عن الكاتب الامريكى روبرت سان جون فى كتابه عن الرئيس الذى ترجمته هيئة الاستعلامات ترجمة خاصة .. ونحن نختار من بين التفاصيل العديدة التى عرضها الكاتب كامريكى متعصب فقط الفقرات التى تساعد على توضيح حكاية صفقة الاسلحة ، آخذين فى الاعتبار أنها تروى من وجهة نظر رجل

أمريكي متعصب لبلاده ، ولكنه لم يستطع فى كثير من الاحوال الا ان يعترف بالحقيقة انصافا لجمال عبد الناصر يقول روبرت سانجون:

فى يوم من أيام شهر ابريل استقل الوفد المصرى طائرة هندية متجها نحو الشرق وحين توقفوا للمرة الثالثة ، فى رانجون حدث شيء لم يعرفه أحد الا بعد ذلك بعدة أشهر ، فما أن التقى ناصر بشواين لاى حتى اتخذ ناصر قرارا وسأل شواين لاى — عن طريق المترجم — بينما لم يكن أى فرد آخر يسمع :

« هل تظن يا سيادة رئيس الوزراء أن الروس سيوافقون على أن يبيعوننى السلاح اذا طلبت منهم ذلك ؟

فابتسم شواين وأجاب بسرعة :

هل يسمح لى سيادة رئيس الوزراء أن أجس نبضهم فى ذلك الموضوع . اننى لا أعتقد أنهم سيرفضون .

وكان السفير الروسى فى القاهرة دانيل سولود الذى عاش عدة سنوات قبل ذلك فى لبنان وعرف قليلا من الجمل والالفاظ العربية ، قد نجح فى عقد اتفاق للتبادل مع المصريين ، الآلات والمواد الكيماوية فى مقابل القطن والقمح ومن المحتم أن تكون له علاقة أيضا بتعاقد كبير أبرم مع ألمانيا الشرقية وكذلك بمذكرة كانت موسكو قد أصدرتها فى أوائل العام معلنة أن روسيا لن تقف مكتوفة اليدين اذا أقيمت قواعد عسكرية فى الأراضى العربية تحت اسم حلف بغداد ».

وبعد عودة عبد الناصر من باندونج بوقت قصير حضر حفل استقبال ديبلوماسى كان سولود موجودا فيه وما أن رأى سولود رئيس الوزراء حتى أسرع يقابله وسط الحجرة وحياه بحرارة وانتحى به فى ركن خال وقال :

- هل أنتم تهتمون بصفقة الاسلحة من الاتحاد السوفيتى ؟ اذا كان الأمر كذلك فانى أود ان أخبر موسكو فورا بذلك .

وابتسم ناصر وفكر بينه وبين نفسه ، لقد كان شواين مشغولا عندما تحدث معه عبد الناصر فى رانجون كلاما عابرا ، ولم يعطيه كلمة نهائية ، كان مجرد سؤال طرحه بسرعة وسط حديث عابر ومع ذلك قال عبد الناصر بصوت مرتفع وكأنه يسمع الاقتراح لاول مرة :

- ان اهمية الاقتراح تبدو بالنسبة لى عظيمة جدا وانى على استعداد فى البدء فى محادثات لهذه الغاية .

واخبر سولود موسكو وبدأت المباحثات ..

ثم وصل ديمترى شبيلوف وهو شخص طويل مترهل وكان يعمل رئيسا لتحرير جريدة « برافدا » وصل الى القاهرة ليحضر الاحتفالات السنوية بعيد الثورة الثالث وعومل خلال خمسة أيام على انه رئيس تحرير جريدة أجنبية هامة ولا شيء أكثر من ذلك ، وجلس فى كرسى مناسب فى حجرة الصحافة فى احدى الامسيات ينصت الى خطاب دام مدة ساعتين ونصف الساعة القاه رئيس الوزراء وفى اليوم التالى شاهد عرضا عسكريا دام خمس ساعات للعتاد والأسلحة البريطانية والفرنسية والأمريكية وبعد ذلك بثلاثة ايام ذهب الى الاسكندرية لكى يشاهد الاحتفالات برحيل فاروق الى منفاه ، وهناك التقى بمسئول وشكا له بمرارة من المعاملة التى يلقاها ونوه له بانه لم يأت ليشاهد العروض ويستمع الى الخطب بل ليسلم رسالة الى رئيس حكومة مصر الذى لم يقدمه احد اليه حتى الآن .

واخيرا فى ٢٧ يوليو قابل عبد الناصر وقال له فى معرض الحديث :

- ان ما جئت لاخبرك به هو ان الاتحاد السوفيتى على استعداد لأن يعطيكم كل ما تطلبونه من السلاح .

وبعد ذلك بشهور تم توقيع الاتفاق بالفعل سرا فى يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٥٥ ، وفى يوم الاثنين اتصل عبد الناصر تليفونيا بالسفير الأمريكى واخبره بما حدث .

وفى ذلك اليوم نفسه طلب السفير البريطانى مقابلة عاجلة مع رئيس الوزراء وعندما وصل مرتبكا قليلا ، قال انه عرف بذلك الخبر من الأمريكيين وسأل جمال عبد الناصر قائلا :

ـ هل ذلك صحيح حقا ؟

فأجابه عبد الناصر : لقد عقدنا اتفاقا تجاريا تماما .

وفى يوم الثلاثاء اعلن هذا الانباء فى المعرض العربى وكان رد فعل واشنطن سريعا ، واعتلى جورج الن وكيل وزارة الخارجية لشئون الشرق الأوسط ، اول طائرة الى القاهرة ، وعندما نشرت هذه الأنباء كتب أحد رجال الصحف المصريين ((فى **الأيام السالفة كنا نحبوا على بطوننا الى واشنطن ، والآن تحبو على واشنطن على بطنها الينا))**

وحين كان الن فى طريقه اعتبرت واشنطن أن ما سمعته هو عن الشحنة التشيكية التى تتكون من مائتين او ثلاثمائة طائرة ميج ــ ١٥ و ٢٥ قاذفة قنابل متوسطة ومائة أو مائتى دبابة ستالين ، وست غواصات وعدة حمولات من المواد الخام الصغيرة .

وعندما وصل الن ذهب مباشرة الى السفارة الأمريكية لتقديم تقريره وحددت مقابلة مع عبد الناصر فى الصباح التالى ووصل الن يصحبه السفير الأمريكى قبل الموعد المحدد بوقت قصير ، وانتظرا نصف ساعة ثم سألا عما اذا كان رئيس الوزراء قد احيط علما بوصولهما . وكان رئيس الوزراء قد علم بوصولهما فعلا وانتظرا ساعة ثم سألا السكرتير عما اذا كان قد حدث اى خطأ .

لم يكن هناك أى خطأ فقد قال لهما السكرتير : « ان رئيس الوزراء يعرف أنكما هنا » .

ومضت ساعة ونصف ساعة قبل أن يسمح لهما بالدخول وأعطيت للصحفيين عدة أسباب مختلفة لتفسير ذلك التأخير وقالت السفارة ان رئيس الوزراء كان ينتظر ايضاحا من ممثله فى الأمم المتحدة فى نيويورك عن نقطة معينة تدخل فى المسألة ، وأوضح الن بعد ذلك قائلا ان رحلته لم تكن تتعلق بشحنة الأسلحة التشيكية على الاطلاق وقال آخرون ان تأخير الميعاد كان يرجع الى سوء فى القيم .

وبعد مضى أربع سنوات من ذلك صرح أحد الرسميين المصريين قائلا : « هذا هو أحد الموضوعات الذى لا يقدر أحد غيرنا فقط أن يتحدث عنه لانه ليس هناك أى فرد فى العالم يعرف لماذا فعلنا شيئا ما الا نحن فقط ، لقد جعلنا مستر الن ينتظر لاننا كنا قد سمعنا أنه أحضر معه من واشنطون رسالة ساخطة وأنه كان ينوى أن يضرب المائدة بيده ويلقى علينا محاضرة ولقد جعلناه ينتظر لكى نهدئه ، جعلناه ينتظر حتى قال انه لن يقدم الرسالة التى أرسل لتسليمها (١) ».

ومهما يكن السبب ، فان النتيجة هى أن الممثل الشخصى لرئيس الولايات المتحدة كان فى موقف محرج أمام أنظار العالم ». لقد انتظرت مصر أجيالا كثيرة لكى تهين مثل هذه الدولة القوية جهارا ، والآن لقد تم توقيع الاتفاق التشيكى ، ويمكنها اذا أرادت أن تكون مستقلة فى علو ».

---

(١) أوضح عبد الناصر هذه الواقعة فى أحد خطاباته بعد ذلك وقال انه كان مصرا على طرده لو أنه خرج عن حدوده .

وفى ذلك الوقت كان عبد الناصر زعيم العالم العربى ، وكان الناس يدفعون المال الذى كسبوه بالجهد مقابل صوره التى يعلقونها فى محلاتهم فى عمان وبيروت ودمشق بل فى بغداد ، وكان رد الفعل ، هذا الذى جاء من العرب بأجمعهم ، علامة على حاجة هذا الشعب الى ما داب عبد الناصر على تسميته ((**بالكرامة**)) وربما لا تكون هذه هى الكلمة صحيحة فقد بدا اكثر انهم يريدون ان يردوا الضربات الى كل من جعلهم يشعرون بالضيعة .

ولم تحدد خطبة عبد الناصر التى القاها فى المعرض الحربى نوع العتاد الذى ستحصل عليه مصر ، ولكن لم تكد تمضى أسابيع كثيرة حتى بدأت السفن تصل الى الاسكندرية تحمل الوسائل الأولى مخبأة فى صناديق من الخشب وفى احد الأيام سأله احد المحررين من نيويورك عن ١٣٨ صندوقا كبيرا رأيت فى ميناء الاسكندرية .

فرد عليه عبد الناصر وهو فخور : « ان كل شخص يريد أن يعرف ما فى هذه المائة والثمانية والثلاثين صندوقا ، ولكن ، قليل منا فقط هم الذين يعرفون ذلك ولن يعرفه اى شخص آخر . ان الجيش المصرى له أسرار يحتفظ بها لأول مرة فى التاريخ » .

وفى غضون ذلك الوقت قام اربعة أعضاء من لجنة الممتلكات فى مجلس الشيوخ الأمريكى برحلة الى القاهرة وتحدثوا مع رئيس الوزراء لمدة ساعة ونصف ساعة وبينما كانوا يتركون مكتبه فى صحبة السفير الامريكى اذ اقترب منهم رجل قصير — وهز فى وجوههم صندوقا لجمع النقود ، وساهم أعضاء مجلس الشيوخ الاربعة بأن وضعوا نقودا فى الصندوق ، وقلب السفير جيوبه الى الخارج لكى يثبت انه لا يملك نقودا فى ذلك الوقت .

وفى اليوم التالى قالت احدى صحف القاهرة انها تقدم الشكر للامريكيين على كرمهم وعلى هذا البرهان الواضح بانهم حقا يؤيدون

جمال عبد الناصر فى خطته الحربيــة ، فقد كان ذلك أسـبوع التسليح وكان المصريون يساهمون عن طيب خاطر مثلما فعل أعضاء مجلس الشيوخ الأربعة ليجمعوا مليونا من الدولارات ليدفعوها للحكومة التشيكية كقسط أول من ثمن الاسلحة .

وعقدت السـفارة الأمريكية فى القاهرة مؤتمرا سريعـا لكى توضح ان أعضاء الشيوخ الأربعة ظنوا أنهم يساهمون لمسـاعدة أسرة الرجل القصير ، وأنهم لم يكونوا يعرفون أن هذا كان أسبوع التسليح .

ثم تلا ذلك بشهور زيارتان قام بهمـا سـاوين اويد ، وزير الخارجية البريطانية ووصل فى المرة الأولى بعد أن عرفت أنبـاء صفقة الأسلحة التشيكية ، لكى يعطى وعدا بأن الأسلحة الانجليزية ستبدأ فى التدفق على مصر مرة أخرى ، ثم اقترح وجود اتفاق ودى مع حلف بغداد .. تتعهد بريطانيا بأن لا تحاول ادخال أعضاء جدد من الدول العربية بينما تتعهد مصر أن توقف دعايتها المضادة لبريطانيا .

ولكن ، بعد مضى أسابيع قليلة ظهر لواء بريطانيـا فى عمان عاصمة الأردن فى بعثة هامة : مفاوضة الأردن فى انضمامها لحلف بغداد .

ومضت الشهور ثم جاء سلوين لويد مرة أخرى الى القاهرة وعومل بأدب جاف ، وأقيمت له حفلة عشـاء رسـمية فى قصر عابدين قال خلالها :

ــ تذكروا أن جلوب باشا ما زال هنا فى الأردن ..

ومرت فترة سكون طويلة قطعها أخيرا صـوت عبد الناصر الهادىء يقول :

« لكن جلوب باشا كان فى الماضى ، هل لى أن اخبرك ان جلوب قد تنحى عن منصبه قبل أن تدخل حفلة العشاء الليلة بوقت قصير .

وكانت هذه هى الحقيقة وكان الجنرال سيرجون باجوت جلوب هو ضابط الجيش الانجليزى الذى كان يتكلم العربية بطلاقة ويلبس ملابس البدو هو الذى نظم الفيلق العربى . وكان يروقه أن يناديه الغير بلقبه الذى حصل عليه وهو جلوب باشا وفى نفس هذا المساء كان رئيس وزراء الملك حسين قد استدعاه ومنحه مهلة ساعتين ليترك البلد الذى كان يدعى انه يحبه مثل وطنه .

وبعد أن رحل اويد عقد مؤتمر قمة ثلاثى عربى من الملك سعود ملك السعودية العربية ، والرئيس شكرى القوتلى رئيس جمهورية سوريا وجمال عبد الناصر الذى كان يراس المؤتمر ، وجلس الزعماء الثلاثة ومستشاروهم حول مائدة كبيرة ثمانية الشكل فى سراى القبة لمدة ثمان ساعات يوميا واستمروا على ذلك ستة ايام يناقشون مشاكل الدفاع المشترك ويعدون الاتفاقات التى صيغت ووضعت فى كتاب من الجلد الأخضر وختمت بأختام حمراء وتوقيعات كثيرة واقنع عبد الناصر كل من القوتلى وسعود ان يوقعا تعهدا معه جاء فيه : « وبناء عليه نعلن عن تصميمنا على حماية العالم العربى من شرور الحرب الباردة بأن نبتعد عن مجاريها المختلفة وان ننتهج سياسة عدم المحاباة نحوها » .

وكان هذا نصر لسياسة الحياد لدرجة انه اقتنع بأنه مفتاح المستقبل السعيد لمصر وجيرانها وكان نصرا شخصيا له ايضا ، اذ كان يأخذ مكانه كزعيم للحياد العربى .

وبعد ذلك بعدة أيام وصل الى القاهرة كريستيان بينو ، وزير خارجية فرنسا وكان الاجتماع معه مثمرا لان بينو وافق على الا تنضم فرنسا الى حلف بغداد ، ووعد باجراء انتخابات فى الجزائر ووافق على تخفيض امدادات الأسلحة لاسرائيل .

وكل يوم كانت التجارب الجديدة تثبت أن عبد الناصر كان عاقلا .

وفى شهر ابريل قال عبد الناصر فى حديث له مع مراسل من نيويورك « ان معى فى جيبى عرضا سوفيتيا بالمساعدة فى تمويل السد العالى بأسوان وسأفكر فى قبوله اذا حدث اى تدهور فى المفاوضات مع واشنطن » .

لقد كان يتصرف عن قوة ، وأراد أن يعرف الشعب الامريكى ذلك ومن خلال المقابلة القى محاضرة على الغرب .

« انتم أيها الأمريكيون تركزون اهتمامكم على القواعد الحربية وهذه القواعد بما فيها من قنابل ذرية وهيدروجينية ستكون عديمة الفائدة وفى وسعكم أن تقيموا القواعد الحربيـة ولكن حول كل قاعدة من هـذه القواعد توجـد آلاف من القواعد الوطنيـة »

وفى منتصب شهر مايو اقنع عبد الناصر مجلس قيادة الثورة بالموافقة على خطوة جريئة ـ حذره البعض من احتمال ان تسبب هذه الخطوة تعقد المسائل من الناحية الدولية بدرجة خطيرة ـ وهى الاعتراف بالصين الشعبية وفى الوقت نفسه صرح باتفاق تبادل ضخم .. خمسة واربعون الف طن من القطن المصرى مقابل ستين الف طن من الصلب الصينى .

واستغرق ظهور رد الفعل الحقيقى من واشنطن فترة فقد تلا ذلك بيان استعطافى من الرئيس ايزنهاور .. « اننا نعتقد ان مصر مخطئة فى اعترافها بالصين الشعبية ولكن عملا واحدا يصدر من دولة اخرى ولا يقابل منا بالترحاب لا يجب أن يتلف الصداقة مع هذه الدولة فهو ليس اكثر من المناوشات التى تحدث فى داخل العائلة والتى لا يجب أن تؤدى الى محكمة الطلاق » .

وأجاب عبد الناصر على ايزنهاور بأن أعلن انه سيزور بكين قريبا، وانه قد دعا شواين لاى لحضور الاحتفالات بعيد الثورة الثـالثة

وانه قد قبل دعوة لارسال وزير الدفاع الى الصين لحضور مؤتمرات عسكرية .

وفى اوائل شهر يونيو من عام ١٩٥٦ عين ديمترى شيبياوف ـ الذى لم يكن الا مجرد محرر فى جريدة « برافدا » عندما زار مصر منذ عام ـ عين فجاة وزيرا لخارجية الاتحاد السوفييتى واستقبل استقبالا مشرفا حينما وصل الى مطار القاهرة بعد ذلك باسبوعين هو وابنته التى تبلغ من العمر عشرين سنة ومساعدوه الثلاثة لحضور حفل من الاحتفالات الهامة التى اقامها المصريون ، واصدر عند وصوله بيانا يثنى فيه على مصر يقول : « ان الاتحاد السوفييتى ينظر الى الدول العربية كاخواته » .

وعقد عبد الناصر وشبيلوف المؤتمر بعد الآخر فى مدة يومين ، وفى يوم السبت صدر بيان يقول انهما تحدثا فى المقابلة الاولى عن سد اسوان « وان شبيلوف ناقش وزير التجارة فى قائمة كبيرة من البضائع التى ترغب روسيا ان تمد مصر بها فى مقابل كمية اكبر من القطن المصرى ، واستمر اجتماع يوم السبت حتى مطلع فجر يوم الأحد تقريبا ، وبعد مدة قصيرة استأنفوا الاجتماعات مرة اخرى وعندما انتهت جلسة الأحد التى استمرت اربع ساعات قيل للصحفيين ان الاتحاد السوفييتى عرض اقراض مصر كل البليون والربع بليون دولار التى يتكلفها السد العالى بنسبة منخفضة من الأرباح وعلى ان يسدد القرض على اعوام طويلة .

وطار الرجلان الى بور سعيد حيث كان المصريون يستعدون للاحتفال برحيل آخر جندى انجليزى من ارضهم ، وكان وزير خارجية روسيا قد دعى للاشتراك فى الاحتفال بهزيمة الاستعمار الغربى ولكن البريطانيين وجدوا طريقة لتجنب الشعور بالارتباك عندما يرحلون واصوات عامة المصريين الذين يعيرونهم تدوى فى آذانهم ، فبدلا من ان يسلوا مفاتيح مقر قيادتهم الى جمال عبد الناصر

رئيس الوزراء او الى وزير الدفاع فى هذا الاحتفال العام فى يوم الاثنين ١٨ يونيو وهو اليوم الذى أعلنوه لرحيلهم ، فانهم شحنوا آخر جندى لهم قبل الموعد المحدد بخمسة أيام وبهدوء ، ودون أى احتفال وسلموا المفاتيح لضابط مصرى برتبة ملازم ثان ، وفعلوا ذلك بطريقة مفاجئة جدا لدرجة أن القاهرة لم تستطع تغيير خطة الاحتفال ومن ثم أصبحت مصر حرة قبل الموعد بعدة ايام قليلة وفى يوم الاثنين أقيمت الاحتفالات الرسمية .

وبينما كان عبد الناصر وشيبيلوف يشقان طريقهما فى عربة مكشوفة وسط الجماهير الصاخبة التى احتشدت فى الشوارع بين المطار وقلب المدينة اذ بدا أن شبيلوف شعر بالضيق من اثر العرق تحت حرارة الشمس الوهاجة ، فتحدث لمضيفه بصوت عال خلال طنين صيحات الجماهير « ان هذا يضرنى اكثر منك لاننى لست معتادا على مثل هذه الحرارة » .

وحينما وصلا الى مبنى البحرية قبل جمال عبد الناصر العلم المصرى ورفعه فوق ذلك الابنى كان مقرا لقيادة القاعدة البحرية القوية فى السويس .

وقال فى الجماهير « : ((**أيها المواطنون ، ان هذه أخلد لحظة فى حياتنا ان هذا الجيل من الشعب المصرى على موعد مع القدر ، ان هذا الجيل يمتاز بأنه رأى بعينيه بقايا الغزاة الأجانب يتسللون عائدين من حيث أتوا**)) .

وفى اليوم التالى أقامت القاهرة احتفالاتها وبدلا من أن ينظر عبد الناصر الى عشرات الآلاف من الوجوه التى تتصبب عرقا ، كما حدث فى بور سعيد ، فانه كان ينظر الى مئات الآلاف من الناس الذين بدا عليهم انهم نسوا حرارة الشمس الخانقة حينما كانوا يتكدسون فى زحام شديد بالميدان خارج سراى عابدين ووقفوا مرفوعى الوجوه لمدة ساعتين ينصتون الى خطابه وقال لهم :

« اليوم ، ليس هناك علم اجنبى واحد يرفرف على ارض مصر وللمرة الأولى بعد هذه القرون اصبحنا احرارا تماما لنجاهد من اجل تحديد مصيرنا ، واليوم يحدد بداية عهد جديد » ..

واعلن ان القانون العسكرى الذى كان يعمل منذ الثورة انتهى عمله الآن وصفقت الجماهير بعنف ، كما اعلن ان كل المسجونين السياسيين قد اطلق سراحهم . بل انه صرح بأنه فى وقت من الاوقات بلغ عدد اعداء نظام الحكم امثال هؤلاء فى السجن نحو ثلاثة الاف شخص وقال :

« ان سياستنا صريحة وسنتعاون مع اى شخص او اى دولة على استعداد بأن تتعاون معنا » .

وفى يوم الأربعاء ، وهو آخر أيام الأجازة الرسمية الثلاثة ، وقف عبد الناصر ليتلقى تحية الجيش وسارت الآلات الحربية تفرقع لمدة اربع ساعات دبابات ستالين جديدة ، ومقاتلات ميج النفاثة ، وقاذفات القنابل اليوشن ، وحاملات الجنود الروسية ذات الست عجلات ، وقاذفات اللهب ، والمدفعية الخفيفة والثقيلة والدبابات التشيكية (ت ــ ٣٦) . تقتلع الأسفلت وتملأ السماء بالرعد وتجعل الجو أكثر اختناقا للتنفس وتبللت الياقات بالعرق واغمى على رجل فى المنصة ولكن عبد الناصر وقف لمدة اربع ساعات وقد ركز اهتمامه بصلابته معظم الوقت .

وارسلت كل الدول العربية المجاورة ، ما عدا العراق ، قوات ومزية تشترك فى العرض وتشاهد المتاد القادم من الشرق ، فأرسل الأردن كتيبة من الفيلق العربى وارسل لبنان بعض جنود التزحلق ، وارسلت اليمن جماعة من تلاميذ المدارس الحربية وارسلت كل من ليبيا والعربية السعودية وسوريا وحدات من الجيش النظامى فيها .

وبدا ان كل شخص قد تأثر بعرض القوة العربيــة المصرية الجديدة مراسلو الصحف وأعضاء السلك الدبلوماسي — والمصريون والأجانب على السواء وكان ذلك شيئا يدعو الى النشوة وخصوصا بالنسبة للرجال الذين كان عملهم دائما هو الخدمة العسكرية ، ولكن الشيء الذى كان يدعو الى النشوة اكثر من ذلك هو أن مصر اصبحت حرة وان الدول الكبرى تتنافس على الفوز برضاها .

واصبح فى وسع عبد الناصر ان يحصل على كل ما يريده من اى شيء من الشرق اذ تم توقيع اتفاق لمدة ثلاث ســنوات مع المانيا الشرقية ، البضائع الثقيلة فى مقابل القطن ، وكانت روسيا وكثيرمن الدول الشرقية الاخرى على استعداد لان ترسل له كل ما يحتاجهمن الفنيين ووصلت مائة طن من الأسلحة الصغيرة من الصين وتسلمت مصر اربع كاسحات الغام مصنوعة فى بولندا ، وكان العتاد الحربى التشيكى يأتى فى شحنات وتسلمت مصر تسعة عشر قارب طوربيد ووافقت بولندا على تدريب خمسمائة ضابط بحرى مصرى ، كما وافقت تشيكوسلوفاكيا على أن تبنى مصانع المطاط والأسمنت ، ووافقت المجر على بناء سبعة كبارى ، ووافقت المانيا الشرقية على بناء ترسانة بحرية ومصنع للمواد الكيماوية ومصنع لتكرير السكر ومحطات للقوى كما وافقت بلغاريا على بناء مصانع لتكرير البترول وحفظ الاطعمة .

وفى دول الغرب ، قررت السويد أن تستأنف ارسال شحنات الاسلحة الى مصر وليس لاسرائيل ، وبدات فرنسا تسلم لمصر مدافع الماكينة وقطع المدفعية ومدافع المورتار والدبابات والطائرات النفاثة مرة اخرى بمقتضى اذن بعشرة ملايين دولار على الرغم من خوف ساسة فرنسا من أن بعض هذه الأسلحة ربما يذهب الى الجزائر ويستعمل ضــد فرنسا فى احد الايام ، ووصــل نحو مائتى دبابة فالينتا من بريطانيا عن طريق بلجيكا الى جانب آلات حربية بريطانية معاد تجهيزها فى الطريق ، وكانت كندا قد رفعت تحريمها لتصدير

الأسلحة وبدأت شحن طائرات التدريب بكميات كبيرة ، كما أن الولايات المتحدة كانت قد أعطت مصر فعلا أكثر مما قيمته ٦٠ مليون دولار من المعونة الاقتصادية والفنية ، ولكن مصر أخبرت واشنطن عن طريق السفارة المصرية .

وكانت هناك انتصارات أخرى اقل اهمية فساهم اغا خان بمساهمة صغيرة ولكنها رمزية وهامة فى الأموال التى تجمع لشراء الأسلحة .

وتلقى جمال عبد الناصر الدعوات بالزيارات الرسمية من اربع عشرة دولة أجنبية تضم معظم دول الكتلة الشرقية ، بل كانت هناك للسفر الى روما ومقابلة البابا ، وافتتح الاتحاد السوفييتى أول قنصلية له خارج القاهرة فى بور سعيد ، وفى أحد الأيام أرسلت له تشيكوسلوفاكيا هدية شخصية عبـــارة عن طائرة ذات محركين وخمسة مقاعد ــ سلمها للجيش ــ وبعد ذلك بوقت قصير جاءت من موسكو طائرة اليوشن ــ من نفس نوع الطائرة التى يستعملها خروشوف ــ سلمها للجيش أيضا .

وغدا ، سيرحل شبيلوف ولكن شخصا آخر سيحل محله على مائدة الاجتماعات مباشرة ، اذ أن يوجين بلاك كان سيهبط فى القاهرة مرة أخرى بعد ساعات قليلة وطلب أن يجتمع برئيس الوزراء لأمر عاجل .

((وتبدأ حكاية تأميم القناة))

كلمة السر .. ديلسبس ..!

● **المكان :** مدينة الاسكندرية ، فى ميدان المنشية ، نفس المكان الذى وقف فيه جمال عبد الناصر ليخطب فى الجماهير يوم انطلقت رصاصات تحاول أن تخمد صوت الثورة فى شخص جمال عبد الناصر ..

● **الزمان :** ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ .

بعدما يقرب من عام ونصف ، من الحادث الأول ، وبعد شهور قليلة من اتمام جلاء القوات البريطانية المحتلة عن أرض الوطن ، تخلصا من احتلال دام أكثر من ٧٠ عاما ..

● **المناسبة :** الاحتفال السنوى فى عيد الثورة بيوم طرد آخر ملوك اسرة محمد على من مدينة الاسكندرية يوم ٢٦ يوليو عام ١٩٥٢ .

● **الحاضرون :** حشود من الجماهير المكونة للاتحاد القومى .. وهى جماهير ذات مصالح مختلفة ، لا يجمعها خط فكرى واحد .

● **المتكلم :** هو جمال عبد الناصر قائد الثورة ..

● **المفاجأة :** التى اذهلت الجميع فى الاحتفال هى اعلان قرار من اخطر القرارات التى اتخذتها الثورة المصرية ، حتى ذلك الوقت ..

هذا هو الهيكل الأساسى للحكاية .. أما الحكاية ذاتها فانها شىء آخر مختلف يصنع التفاصيل الكثيرة لهذه الصورة .

مساء ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٤ اقيم احتفال كبير فى المقر الرئيسى لهيئة التحرير لمناقشة اتفاقية الجلاء ..

اراد عبد الناصر لهذا اللقاء ، أن يكون لقاء أخويا وان تتم المناقشة فيه بهدوء « فنكف عن الهتاف والتصفيق ، ونعتبرها جلسة عائلية للارشاد ، والفهم ، حتى لا نعطى فرصة للمضللين ليخدعونا ، وليكون كل فرد منكم عاملا على نشر مبادىء الثورة ، ومثلها العليا » .

وفى هذه الجلسة العائلية تحدث عبد الناصر عن خلاف الثورة مع الاخوان المسلمين ..

فى البداية ، أخرجتهم الثورة من السجون والمعتقلات .. ولكن الأطماع الشخصية بدأت تعمل .. وبدأ الحقد يداخل النفوس ..

« أرادوا أن يفرضوا وصايتهم على الثورة .. فقلنا لا نقبل وصاية .. ولكن نقبل تعاون ، وهناك فرق بين الوصاية ، والتعاون »
« نحن لا يمكن أن نسمح بأن تنتكس هذه الثورة أو أهدافها » .

كانت اتفاقية الجلاء ، قد وقعت .. وكان جمال عبد الناصر يقوم بحملة فى المحافظات لتعبئة المواطنين ، لهذا الانتصار الكبير الذى حققته الثورة ، بعد عامين من قيامها ، وهو المطلب الأساسى للشعب المصرى طوال ٧٢عاما ، منذ وقع الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ .

ضمن جولات عبد الناصر من أجل اتفاقية الجلاء زار مدينة الاسكندرية ، ووقف فى مؤتمر شعبى كبير أقيم بميدان المنشية مقر هيئة التحرير مساء يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ يخطب ..

وقبل أن يبدأ جمال عبد الناصر خطابه ، ارتفعت الهتافات بحياته .. وقال عبد الناصر :

« كفى هتافا ، لقد هتفنا فى الماضى طويلا فماذا كانت النتيجة ، هل سنعود للفوضى ، والتهريج » .

« لا تهتفوا باسم جمال عبد الناصر ، بل سيروا الى الأمام بعزم وقوة ، ولنعمل جميعا لبناء هذا الوطن بناء حرا سليما » .

« يجب أن نتقدم وأن نعمل للمبادىء ، والمثل العليا » .

وتحدث جمال عبد الناصر بعد ذلك دقائق قليلة لا تتجاوز الثلاث عن كفاح الآباء والأجداد من أجل الاستقلال .. وكيف أثمر هذا الكفاح . وقال : « واليوم أشكر الله ، فقد اثمر كفاح آبائكم ، اجدادكم .. وجميع الشهداء الذين استشهدوا فى هذا السبيل »

وكان قد وصل فى حديثه الى الجملة التى يتحدث فيها عن الذين استشهدوا على طريق الكفاح . ومن أجل مصر .. عندما انطلق الرصاص .. وسمع الحاضرون أصوات طلقات نارية متوالية ومتتابعة وسريعة ، وشاهدوا أحد الحاضرين فى الاجتماع وهو يرفع مسدسا ويصوبه الى صدر عبد الناصر ، ويدوس على الزناد ..

وساد السرادق ذعر وهلع ..

وتحرك الرجال من أماكنهم ..

وحدثت ضجة وضوضاء .. ولكن عبد الناصر وقف فى مكانه فى شجاعة الأبطال يخاطب الرجال ..

« أيها الرجال .. فليبق كل منكم فى مكانه »

وظل يكرر هذه الجملة مرات متتالية ، وراء رصاصات متتاليات كانت تنطلق من مسدس محمود عبد اللطيف .. ثم قال عبد الناصر : دمى فداء لكم .. دمى فداء لمصر ..

واستمر عبد الناصر يتحدث الى الجماهير ، وقد أمسكوا بالمجرم والعيون تتطلع الى عبد الناصر ، والآذان تستمع اليه وهو يقول :

« هذا هو جمال عبد الناصر يتحدث اليكم ، لاتراعوا فانه مازال يتحدث اليكم ، بعون الله بعد أن حاول المفرضون أن يعتدوا على حياته ، ان جمال عبد الناصر منكم ولكم وحياته دائما فداء للوطن »

وقال عبد الناصر فى هذا اليوم التاريخى :

« ان دمى دمكم ، وهو لكم ، وسأعيش حتى الموت مكافحا فى سبيلكم . من أجل حريتكم .. من أجل كرامتكم ، وعزتكم .. »

« ليقتلونى .. فقد أودعت فيكم العزة .. ليقتلونى فقد انبت هذا الوطن الحرية والكرامة . ليقتلونى من أجل مصر .. من أجلكم من اجل أحفادكم » ..

ثم دوى صوته بكلمته الخالدة التى ظلت تتردد بعد ذلك أعواما طويلة ، كلكم جمال عبد الناصر ، عندما قال : « اذا مات جمال عبد الناصر ، فانه يموت مطمئنا لأنكم كلكم جمال عبد الناصر » ..

« لن تكون حياة مصر معلقة بحياة جمال عبد الناصر .. بل هى معلقة بكفاحكم .. »

وأراد الله لمصر أن ينجو جمال عبد الناصر ، وأن يعيش ليواصل مسيرة الثورة .. ثورة ٢٣ يوليو .

* * *

بعد هذا الحادث بأقل من عامين .. كان عبد الناصر يتوجه بحديث الى المواطنين بعد أن تم تحقيق الجلاء ، ورفع العلم المصرى ، فوق كل القواعد التى كان يحتلها الانجليز فى منطقة القناة ..

ومن هذا الحديث كانت تطل علامات المستقبل ..

قال عبد الناصر فى حديثه بمناسبة الجلاء الكامل :

« ان جيلنا لم يصنع هذا .. فخلال قرون طويلة كانت اجيال شعبنا تكافح وتناضل ، كان الشهداء يسقطون على الأرض وبجوارهم

أعلامهم مضرجة بالدماء ، ولكن لا يسلمونها أبدا ، وكانت المعارك لا تنقطع بين مد وجزر وتقدم وتأخر . ولكن قوى المقاومة فينا ظلت تخفق وتنبض ..

« كانت الجموع تحتشد ، وتتقدم ، فلا يستطيع الحديد أن يوقف تقدمها .. ولا يستطيع البارود أن يخفق صيحة الحرية تنطلق من صدورها ..

« ثم جاء موعدنا مع القدر ، أتيح لجيلنا أن يشارك فى المرحلة الحاسمة من المعركة ، وأن يسمع بأذنيه دقات أجراس النصر تتجاوب فى الآفاق .. ولكن هذا الموعد مع القدر ليس مجرد ليلة عيد ، ولا هو مجرد أغانى فرح ..

« أن كفاح الشعوب لايتوقف عند غاية ، ولا يستقر عند نهاية .. انه طريق بعيد المدى . مداه مدى الحياة نفسها ، كلما بلغ منه الشعب مرحلة ، لاحت أمامه فى المنى مراحل .. **ان الشعوب الحية لا تتهاون بعد ساعة النصر ، ولا تتراخى ، انها فى ذروة شعورها بالقوة تدرك أن النصر الذى حققته ، انما هو مرحلة على الطريق وليس هو بحال من الأحوال خاتمة المطاف ..** تلك هى حكمة طريق الكفاح » ..

« **ذلك أنه فى نفس الوقت الذى تتحقق فيه للشعوب أمانيها القديمة** ، ترسب وتتجمع فى **ضميرها ، ووجدانها أمان جديدة ..**

« ان كفاح الشعوب طاقة دائمة مستمرة ، متجددة العمر ، خالدة البقاء ..»

يوم تم جلاء القوات البريطانية ، كان هذا اليوم يعنى بالنسبة لعبد الناصر ، بداية مرحلة أخرى من الكفاح ، أكثر قسوة ، وشدة وضراوة فأمامنا كما قال فى صراحة **« مسئولية غايات جديدة ، لابد لها من كفاح » .**

بعد شهر واحد من جلاء القوات البريطانية وفى نفس المكان الذى شهد محاولة الاعتداء الغادر عليه بالرصاص .. وقف عبد الناصر ليعلن تأميم قناة السويس .. وقد فهم الكثيرون أن التأميم هو رد على محاولة البنك الدولى للانشاء والتعمير وعرقلة بناء مشروع السد العالى .. اى أنه رد فعل ، لموقف معين اتخذه الغرب فقط ..

ويخطىء من يتصور ، أن تأميم القناة كان مجرد رد على الدول الاستعمارية التى رفضت تمويل بناء السد العالى .. فقد كان عبد الناصر الذى رفض الدخول معها فى أحلاف عسكرية ، بل وقاد حملة واسعة فى المنطقة العربية كلها ضد هذه الأحلاف .. كان يعرف أن دول الغرب لن تمول له السد العالى .. وكان عبد الناصر من قبل قد رفض أى ارتباط له مع الغرب المستعمر .. وكسر احتكار السلاح ، واتجه الى الكتلة الشرقية يفتح معها نافذة لأول مرة ويستورد منها السلاح .

لذلك فانه كان من المنطقى أن يرفض الغرب تمويل مشروع السد العالى .. بعد أن حاول أكثر من مرة اجهاض الثورة ، بالتآمر عليها . وفشل .. فكان أقل ما يقوم به هو محاولة الخنق الاقتصادى ، ورفض تمويل السد العالى واحد من هذه السلسلة من الضغوط الاقتصادية اذ أن السد العالى أحد المشروعات الرئيسية والأساسية التى تعتمد عليها الثورة فى تطوير المجتمع .

كان موقف عبد الناصر من الغرب المستعمر واضحا ..

كان موقفه من انجلترا واضحا .. فانجلترا هى التى استعمرت مصر ٧٢ عاما ، ولم تخرج نتيجة الاصرار وحده ، بل وأيضا بعد أن حملنا السلاح ضدها ، فخرجت مرغمة .

وفرنسا أيضا كان موقف عبد الناصر منها أكثر وضوحا ، فثورة الجزائر تفجرت تطالب بالحرية والاستقلال .. ومصر الثورة لم تكتف بمجرد الدعم المادى والمعنوى لهذه الثورة الوليدة التى

تواجه استعمارا فرنسيا عاتيا يريد أن يتشبث بالأرض بعد أن فرض نفوذه ، ونظام حياته ، ولغته ، على شعب عربى لمدة ٩٠ عاما .. لم تكتف مصر عبد الناصر بمجرد التأييد ، بل انها راحت تقف بكل طاقاتها ، وبكل ما تملكه من أسلحة وعتاد الى جانب القوى الجديدة التى اعلنت الثورة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسى فقد وقفت الى جانب هذه الثورة وهى ما زالت جنينا يحبو فى أيامه الأولى ..

وأمريكا كان موقف عبد الناصر منها أكثر وضوحا منذ رفض مشروعاتها المشبوهة بشأن الشرق الأوسط ، وكسر احتكار السلاح ، ورفض حق تفتيشها على السلاح ، وقاوم الأحلاف التى تربط المنطقة العربية بها ..

اذن موقف الغرب كان واضحا من الثورة ..

وموقف الثورة من الغرب كان واضحا أيضا .. ولو لم يرفض البنك الدولى للانشاء والتعمير تمويل بناء السد العالى ، لأمم عبد الناصر القناة أيضا .. ولكن ربما فى وقت مختلف ، فثورة يوليو التى قامت لتبنى ، وتقف فى مواجهة الاستعمار ، ووضعت ضمن أهدافها الستة أعادة البناء وتحقيق العدل ، ومقاومة الاستعمار ، هذه الثورة كان لا بد أنها ستقضى على أكبر أوكار الاستعمار فى مصر .. وهو شركة قناة السويس العالمية .

فعبد الناصر ناقش قضية تأميم قناة السويس ، ثم طلب تأجيل البت فيها حتى ينتهى من اخراج الانجليز من مصر ، وحدد موعدا لذلك فى عام ١٩٦٠ على أساس أن هذه هى الفترة الكافية لبناء جيش قوى يمكن أن يواجه ما قد ينجم عن تأميم القناة من عدوان .. هكذا قال بالنص ..

وبعد شهور قلائل من قيام الثورة ، كان ضباط القوات المسلحة يجتمعون فى ناديهم ، ليستمعوا الى أولى محاضرات الموسم الثقافى ،

وكانت حول قناة السويس ، وفى نهاية المحاضرة قاد عبد الناصر الضباط الى قسم وتعهد بتأميم قناة السويس .. حدث ذلك فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٥٢ على نحو ما نشرت جريدة الأهرام فى اليوم التالى للمحاضرة ..

وقد انشأ عبد الناصر مكتبا للأبحاث عن قنـــاة السويس فى سنة ١٩٥٣ ملحقا برئاسة الوزارة .

وفى عام ١٩٥٤ طلب عبد الناصر من ادارة انشأها حديثا اسمها ادارة التعبئة العامة أن تقوم بدراسة واسعة حول قناة السويس تاريخها ، وعملها ، وادارتها ، والعاملون فيها ، وكل ما يتعلق بها وقد انتهت الدراسة فى سنة ١٩٥٥ ، وبدات الادارة بعد ذلك تنشرها فى المجلة الشهرية التى كانت تصدرها ، واسمها مجلة « الهدف تحت عنوان ((**هذه القناة لنا**)) .

وفى ١٧ نوفمبر ســنة ١٩٥٤ وجه عبد الناصر رســالة الى الشعب المصرى بمناسبة الذكرى الخامسة والثمانين لافتتاح قنا السويس قال فيها « الم تكن القناة من الأسباب الرئيسية التى دفعت بالاستعمار الى احتلال بلادنا بعد أن بيعت أسهم مصر فيها بأبخس الأثمان ؟؟ الم يتخذ الاستعمار من القناة ذريعة يسوغ بها بقاء الاحتلال ، ومن الدفاع عنها سببا لربط مصر بعجلتها ، ذلك عهد سجلنا نهايته وانقضاءه بحمد الله باتفاقية الجلاء ، وأقسم بالله ما انقضى الا بفضل كفاح طويل مرير ، استغرق ثلاثة اجيال من كفاح بدأه أجــدادنا ، وحمل شعلته آباؤنا وأوقــد جذوته شبابنا ، اذا كان لهذا الجيل وهو يؤدى التحية للأجيال السابقة أن عبــدت له الطريق ، اذا كان له أن ينظــر الى حاضره بعين مستبشرة فلن تقر عينه بالمستقبل الا اذا أشهد الله على أن يقوم فى الحاضر بمسئولياته كاملة قبل الأجيال القادمة ..

ثم قال كلمات ذات معنى عميق وهى ((**لقد كانت مصر للقناة ، وذلك هو الماضى ، ولم تعد مصر للقناة .. ذلك هو الحاضر ،وسوف تكون القناة لمصر .. ذلك هو المستقبل)) ..**

وفى سنة ١٩٥٦ قبل تأميم القناة بشهور ، وقبل زيارة يوجين ك للقاهرة ، نشرت مجلة المصور على غلافها عنوانا يقول : ماذا ا عبد الناصر .. وفى التحقيق الصحفى الذى نشرته المجلة قال د الناصر انه يقرأ كتابا عن قناة السويس ..

ولم يكن من المعقول أن يكون تأميم القناة مجرد رد فعل للامتناع تمويل مشروع السد العالى ، وان البنك الدولى اذا كان قد ق على منح قرض لبناء السد العالى لانتهت المشكلة ولظلت القناة كة اجنبية وليست مصرية ..

هذا تصور ساذج .. ولكنه رائج بكل أسف ، بل انه يدرس مدارسنا ، وكل الذين تناولوا تاريخ هذه الفترة بالكتابة ، لم هم ان يذكروا أن رفض تمويل السد العالى ، هو سبب تأميم اة السويس ..

ان رفض التمويل ، كان الحجة ، والمناسبة فقط ، ولكنه لم يكن سبب على اى حال ..

* * *

وحتى لا تتوه منا حكاية تأميم القناة .. نذكر ان مدة عقد متياز القناة كان سينتهى سنة ١٩٦٨ ، وبين الوثائق التى وجدت فى مقر الشركة بالقاهرة ، أن الشركة كانت قد كونت لجنة

من فوستر دلاس ، وجورج بيكو وسابا حبشى باشا وعدد من كبار المساهمين فى شركات البترول ، ومهمة هذه اللجنة هى التجهيز لمد امتياز قناة السويس فترة اخرى أو تدويلها بعد ذلك .

فلو لم يؤمم جمال عبد الناصر القناة لمد امتيازها سنة ١٩٦٨ أو لتم تدويلها بموجب الخطة التى وجدت بين وثائق ادارة الشركة فى القاهرة .

* * *

ونعود الى تكملة الحكاية .. حكاية تأميم قناة السويس ..

الحكاية يرويها الدكتور مصطفى الحفناوى ، عضو أول مجلس ادارة لشركة قناة السويس المساهمة المصرية .. فيقول :

فى اغسطس سنة ١٩٥٢ .. كان كل ما يشغلنى منذ أعوام هو قضية تأميم القناة ..

وحملت هذه القضية على كتفى طوال أعوام عديدة ، وطفت بها على كل المسئولين فى مصر ..

ذهبت للوزراء .. وذهبت لرؤساء الاحزاب السياسية وأعضائها .. حاولت أن أدفع بالقضية لتطفو على سطح حياتنا السياسية ، ولكن احدا لم يكن ليسمع .

وقررت انشاء جريدة ، اسمها قناة السويس ، لأرفع فيها صوتى ، بعد أن عجزت عن توصيله عن طريق الصحف التى اشترتها الشركة الأجنبية ، وعن طريق الاحزاب ، والبرلمانات التى لم تجرؤ على اثارة القضية ..

وقامت الثورة فى ٢٣ يوليو . وتنفست الصعداء ، وعلى الفور سعيت الى الالتقاء بقادة الثورة ..

وفى شهر اغسطس سنة ١٩٥٢ ، لا اذكر بالضبط التاريخ ، ولكننى اذكر فقط أنه فى النصف الأول من الشـــــهر وجدت من يطلبنى ، ويقول لى :

ـ انت على موعد فى مجلس الثورة غدا ..

وذهبت الى هناك ..

قابلنى ضابط شاب اسمر طويل ، يجلس على مقعد ، وامامه ترابيزة خشب قال لى :

ـ انا جمال عبد الناصر حسين ..

قلت له :

ـ طلبت أن أقابل قادة الثورة لأعرض موضوعا خطيرا وهاما .

ـ ايه هو ..

ـ موضوع قناة السويس .

ـ مالها ..

ـ لازم نأممها ..

ـ ليـــه ؟

ـ علشان دى قناة مصرية ..

واخذت اشرح قصة القناة ..

واستمع عبد الناصر ، جيدا ، وطويلا .. ثم قال لى :

ـ أحسن حاجة نركز دى الوقت على اخراج الانجليـــــز من القاعدة العسكرية ، واعدك بعد خروجهم هنأمم القناة طبعا ..

وبعـــــد ايام كان نفس الصوت الذى طلبنى لاقابل جمـــــال عبد الناصر لأول مرة فى حياتى يطلبنى ويقول لى :

ـ احنا عاوزين منك محاضرة عن قناة السويس وضرورة تاميمها فى نادى القوات المسلحة . لنفتتح بها الموسم الثقافى ..

ـ والمحاضرة الثانية

ـ لعبد العزيز عبد الله سالم عن الاصلاح الزراعى ..
ـ واشمعنى تبدأوا بقناة السويس ..
ـ أحسن ..

وذهبت لالقاء المحاضرة .. وحضر كل قادة الثورة ، وفى نهاية حديثى طالبت بتاميم القناة .. وقلت ان ذلك سوف يعقبه حرب .

ووقف الضباط جميعا يقسمون انهم سيؤممون القناة ..

وفى يوم ١٨ نوفمبر ١٩٥٢ طلعت جريدة الاهرام بخبر طويل حول افتتاح الموسم الثقافى ، وحول قسم الضباط !

***

اسمحوا لى ان اقفز سنوات لأصل الى ملفات الشركة التى وجدت بعد التأميم ..

وجد فى ملفات الشركة ما يثبت ان مجلس ادارة الشركة بعد ان قرأ نبأ المحاضرة والقسم ، طاف على الوزراء ، يطلب اليهم أن يحددوا موقفهم من هذه القضية التى أثيرت فى نادى الضباط ..

وقالت وثائق الشركة أن مجلس الادارة قابل الضابط جمال عبد الناصر ، وطرح عليه القضية ، ولكن جمال عبد الناصر ظل صامتا طوال الحديث ، ولم يتكلم فلم يبد أى راى فى القضية التى أثيرت والتى ذهب مجلس الادارة يناقشه فيها ، بل انه تحدث اليهم فى موضوعات أخرى ، ثم أنهى المناقشة .. دون أن يخرجوا بنتيجة من هذه المقابلة ..

***

بعد أيام من هذه المحاضرة ، كان الدكتور مصطفى الحفناوى يتلقى خطابا من مجلس الثورة يطلب اليه انشاء مكتب تابع لرئيس الوزراء لشئون قناة السويس ، مهمته الاعداد لتصفية الشركة ، ويختار مقرا للمكتب فى مبنى مجلس الشيوخ .

الدكتور مصطفى الحفناوى ما زال يروى الحكاية من وجهة نظره :

« بعد أيام اتصل بى أحد أصدقائى ، ودعانى لتناول الغداء معه .. وأكد على بضرورة الحضور لأن هناك مفاجأة تنتظرنى ..

وذهبت الى منزل صديقى فى شارع الهرم ..

وبعد وصولى .. فوجئت بجمال عبد الناصر ، يدخل ومعه فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى ..

وقال لى جمال ونحن نتناول الغداء :

ـ أنا جاى علشان نتكلم عن قناة السويس ..

وبعد ان تناولنا الغداء ، واصلنا حديثنا فى الصالون .. وفى نهاية الحديث قال لى وهو يشد على يدى بقوة :

ـ أعدك أن نؤمم هذه الشركة سنة ١٩٦٠

وقلت له :

ـ ليه سنة ١٩٦٠ ؟

وقال لى :

ـ انت قلت فى كتبك ان قناة السويس مجموعة دول .. لازم يكون عندنا جيش علشان نستعد لمواجهة المعركة مع هذه الدول .

وبعد شهور .. قرات ان عبد الناصر كسر احتكار السلاح واشترى لجيش مصر كميات من الأسلحة .. وقلت فى نفسى هذه خطوة .. وامسكت الورق والقلم لاكتب رسالة لعبد الناصر أقول له :

ـ أرجو الا تنسى أن يكون بين هذه الأسلحة غواصات تقف فى مداخل القناة تحرسها عندما تضرب ضربتك ..

فرد على شاكرا .. فقط ..

وبعد شهور التقينا فى صلاة العيد فى مسجد الامام الحسين ، وامسك عبد الناصر بيدى كأنه يريد ان يقول شيئا ولكنه لم يقل أى شىء .. »

وبعد شهور أخرى كانت الشائعات تنطلق وتقول ان عبد الناصر سيجدد امتياز شركة القناة وأنه تجرى مفاوضات مع شركة قناة السويس لاستثمار أموالها فى مشروعات طويلة الأجل .. والحقيقة اننى عندما سمعت هذه الاشاعات ، وقرأتهبا فى بعض الصحف الأجنبية اصابنى يأس شديد ، واحسست بخيبه امل كبيرة .

واغلقت مكتبى .. وذهبت الى الريف أعيش هناك .. واقول لكل من اقابله اننى خدعت وأهاجم جمال عبد الناصر .

* * *

كنت اعيش فى عزبتى على بعد ٥٠ كيلو متر من الاسكندرية .. عندما جاءنى ضابط من البوليس يطلب الى برفق ، ومودة أن أرتدى ملابسى . وأذهب معه الى القاهرة .. انزعجت ، وخفت . كنت اتصور انه قد تم القبض على نتيجة تعليقاتى على الشائعات التى كانت تتردد . وفى الطريق الى مطار الاسكندرية علمت أننى سأركب طائرة حربية خاصة للقاهرة . وازداد خوفى ، وخاصة أن الضابط المرافق لى كان لا يعلم شيئا عن سبب استدعائى .

ونزلت من الطائرة فى المطار الحربى بالقاهرة وأنا لا أعرف الى أين سأتجه .. وظللت فى ضباب حتى وجدتنى فى حديقة بيت جمال عبد الناصر ، وهو جالس فى الحديقة ، وعندما رآنى قام ليقابلنى فى منتصف الحديقة ، وهو يضحك قائلا :

ـ انا آسف اللى جبتك بالطريقة دى .. لكن محدش عرف يدل عليك .. انت عارف أنا جبتك ليه ..؟

ـ لا ..

وقال :

ـ ما هى احسن حاجة تتمناها ..

وقلت :

ـ يعنى أنا محكوم على بالاعدام ، ونفسى فى ايه قبل تنفيذ الحكم .

وضحك جمال عبد الناصر وهو يقول ..

ـ احنا مش اتفقنا ان فيه حاجة هنعملها سنة ١٩٦٠ ، هل فيه مانع لو قدمنا عقرب الساعة وبقينا فى سنة ١٩٦٠ الليلة دى ..

انا قررت تأميم شركة قناة السويس فورا وعلشان كده جبناك .. عاوزك تكتب مشروع القانون ..

وسرحت .. وانتابتنى أحاسيس متباينة لا أستطيع أن اصفها .. ووجدتنى رغم كل حماسى السابق لتأميم الشركة اقول له :

ـ ممكن نأجل الموضوع ٦ شهور ..

ـ ليه ..

ـ لأن القضية ما زالت مجهلة ، ويجب أن نبسط الأمر للرأى العام حتى يكون معنا ..

ـ تفتكر الراى العام العالمى يمكن يسمع مننا دى الوقت حاجة ..

ـ انا اكاد اسمع بأذنى ازير الطائرات التى ستقذفنا بالقنابل .. ولست ادرى مدى صمود الشعب .

ـ مين اللى حيحاربنا .

ـ انجلترا «وشرحت الأسباب» وفرنسا «وشرحت الأسباب» وربطت بين هذا وبين المشكلة القائمة فى الشرق الأوسط منذ وجود اسرائيل ..

واستمع عبد الناصر جيدا ثم قال :

ـ هل نحن أصحاب حق .

ـ يقينا ..

ـ يتفضلوا يحاربوا .. ما يقدروش يعملوا اى حاجة ... احنا اقوى منهم ما دمنا أصحاب حق ، والشعب المصرى قادر ..

ثم التفت الى وسألنى :

ـ فيه حاجة تانية ..؟

ـ أيوه .

ـ ايه ..

ـ التدويل .

ـ تدويل ايه ..

وشرحت كيف أن الغرب اعد مشروعا لتدويل قناة السويس وانني ابلغت هذا المشروع للسيد الرئيس فى مذكرة سبق أن ارسلتها اليه ، ولم يصلنى الرد فنشرتها فى كتابى وبدت علامات الدهشة على وجهه ثم طلب الكتاب الذى نشرت فيه المذكرة وهو الجزء الرابع من مؤلفاتى عن قناة السويس ، وكان الكتاب فى مكتبته ، وقلب صفحاته وعندما قرأ المذكرة ، كانت دهشته شديدة لانها لم تصله .

وبعد ان أعاد قراءتها جيدا قال لى :

ـ فيه حاجة تانية تشوف اننا لازم نبحثها ..

قلت :

ـ هيسحبوا الموظفين الأجانب .

وقال :

ـ مفيش اى عقبات يمكن تحوشنى .. انا مش هأخر الموضوع عن يوم ٢٦ الساعة ٨ مساء وهأعلن القرار من ميدان المنشية بالاسكندرية (*)

دى الوقت عاوزك تحكى لى القصة من اولها .. عاوز اسمعها تفصيلا ، انا قريت كل الكتب لكن عاوز أسمع كمان .. وعاوز اقول لك ما تختصرش .. ما عنديش شغله غيرك .. هل عندك مانع نقعد

لغاية الصبح انا عاوز الناس دول كلهم يعرفوا الحكاية ، واشار الى عدد من الأشخاص كانوا يحضرون الجلسة .

ــ لا .. ماعنديش مانع ..

وبدات اشرح القضية .. كقضية قانونية .. وحق مصر فى قناة السويس ، ولكن عبد الناصر قال لى :

ــ لا .. ابتدى من الأول ... من أول قناة فرعون ، علشان الناس يسمعوا معانا كمان ..

وبعد منتصف الليل ، كنت قد انتهيت من حكاية القناة من اولها حتى نهايتها . عندما سألنى :

ــ احكى لهم .. حكايتك انت مع القناة ..

وبدات مرة ثانية أشرح ، كيف اصطدمت بمشكلة قناة السويس على ظهر باخرة يونانية ، وانا فى أول رحلة عمل لى فى حياتى الى الخارج .. وكانت الى انجلترا .

سمعت عجوزا انجليزيا يتحدث عن القناة ، ويسب المصريين ، ولما حاولت التدخل فى الحديث أهاننى .. وفى لندن سألت عن كتب عن قناة السويس ، فدلونى على مخزن وثائق وزارة الخارجية البريطانية حيث تتراكم الوثائق ، واخذت أقرأ ، واقرأ ، ثم قررت أن أقدم رسالة للدكتوراه عن قناة السويس ولكن جامعة اكسفورد لم يكن فيها أماكن الا للعائدين من الحرب فذهبت الى باريس ، وسجلت الدكتوراه ، ودخلت مخزن وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، ثم ذهبت الى مخازن المحفوظات فى فينا وفى الفاتيكان .. واستطعت أن أرتب الخطة التى ادخلتنى مبانى الشركة لأطلع على وثائقها السرية ، واحصل على بعضها ، واحتفظ بصور من البعض الآخر منها واعددت رسالتى الكاملة ، وحصلت على الدكتوراه ..

ما زال الدكتور مصطفى الحفناوى يروى جانبا من حكاية تأميم القناة كما عاصرها :

بعد أن انتهيت من هذه القصة الشخصية البحته ، المرتبطة أيضا بقناة السويس سألنى جمال عبد الناصر :

ـ انت هتبات فين الليلة دى .

وقلت :

ـ فى بيتى بجاردن سيتى .

وقال لى : انت دى الوقت عارف سر خطير ، ولو حد عرف انك قابلتنى ، السر يمكن يتعرف .. عاوزك تحرص ان محدش يعرف موجود فى القاهرة ، وتقفل على نفسك ، وتيجى الليلة الجاية هنا الساعة تمانية ومعاك مشروع القانون ومش عاوز كلام كتير .. صفحة واحدة بس ..

وقال وهو يضحك : انتم يا بتوع القانون دايما تكتروا فى الكلام وتعقدوا الأمور ..

فى اليوم التالى كنت اذهب الى بيت الرئيس فى منشية البكرى .. ومعى صفحة واحدة فيها مشروع القانون بتأميم شركة قناة السويس العالمية وتحويلهـا الى شركة مساهمة مصرية .. وهناك قالوا لى : الميعاد الساعة عشرة فى مبنى مجلس الثورة . وعدت الى بيتى قلقا .. حتى جاء الموعد كنت أمام مبنى مجلس قيادة الثورة ، ووجدت هناك من ينتظرنى . ويصحبنى مباشرة الى حجرة جمال عبد الناصر ..

حجرة بسيطة مستطيلة بها سرير سفرى ، وترابيزة مستديرة وعدد من الكراسى الخشبية ..

ولما رآنى قال لى على الفور :

ـ انت عارف أنا جبتك هنا ليه ..

وقبل ان اجيب ، كان يرد هو على السؤال قائلا :

ـ انا متفائل بالأوضة دى ، كل ما أعمل عمل فيها ينجح .. فيها بحثت صفقة الأسلحة ، وأعمال كثيرة انتهت بخير والحمد لله . وان شاء الله الليلة دى هنخلص على شركة قناة السويس هنا ..

وسلمته مسودة القانون ، ومعها مذكرة توشك أن تكون محضرا كاملا لكل ما دار بينى وبينه فى الليلة السابقة قرأها بسرعة ثم قال لى :

ـ ودى لازمتها ايه .

قلت له .

ـ للتاريخ .. أرجو أن تكرمنى بوضع هذه الورقة ضمن محفوظات الدولة .

وقال :

ـ ان شاء الله ..

وبدأ يقرأ مشروع القانون بامعان ، ويناقشنى فيه واجرى عليه بعض التعديلات .. ثم جلس يكتب مسودة خطابه ، الذى سيلقيه فى اليوم التالى بمدينة الاسكندرية .

وتركته فى حوالى الساعة الثالثة صباحا وهو يقول لى :

ـ تبات زى امبارح ، ومحدش يعرف حاجة أبدا ، وتخلى التليفون جنبك ...

وجلست فى بيتى .. بعد ان اخبرنى بالخطة التفصيلية التى اعدها للاستيلاء على مقر شركة القناة فى القاهرة والاسماعيلية وبورسعيد والسويس ..

* * *

مساء ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ (١) .

جمال عبد الناصر يلقى خطابه فى ميدان المنشية بالاسكندرية..

كان الاتفاق على أن تتحرك قوات للاستيلاء على مقر هيئة قناة السويس بجاردن سيتى بالقاهرة ..

وقوات اخرى تتحرك من الاسماعيلية لتستولى على مقر الشركة هنـــاك ..

وقوات ثالثة تتحرك من بور سعيد للاستيلاء على مبنى الشركة ومرافقها فى المدينة ..

وقوات رابعة تتحرك من السويس لتقوم بنفس المهمة ..

القوات لم تكن تعرف المهمة التى ستقوم بهـــا .. فقد وضعت

---

(١) فى حديث لجمال عبد الناصر نشرته صحيفة الصنداى تايمز البريطانية فى يونيو ١٩٦٢ ، أجاب على سؤال حول تأميم قناة السويس وقال فى اجابته : كان الجنود المصريون ينتظرون ومعهم أوامر مختومة باحتلال مكاتب شركة قنـاة السويس ومنشآتها ، وكان محمود يونس يعلم كلمة السر للبدء فى العملية وهى أن اذكر اسم دليسبس فى خطابى .. كان رفض القرض لبنـــاء الســـد العالى هو الدافع المباشر ، ولكنى كنت من قبل قد شكلت لجنة لدراسة مستقبل قنـــاة السويس ، وتقديم مشروعات بشأنها ، فالقناة مصرية ، وأيا كان الامر فقد كان محتما فى النهاية أن تتخذ خطوة مشابهة .

وقال عبد الناصر فى حديثه انه عرف ان بريطانيا وفرنسا أمرت بســـحب مرشيديهما من القناة حتى تتعطل الملاحة وانه عندما سأله أحد المراسلين عن ذلك أجاب ببساطة : لقد امرت الفرقة الموسيقية أن تعزف لهم عند رحيلهم « حفظ الله الملكة » أو « المارسيلييز » .

وفى ١٤ يونيو ١٩٥٧ اجاب عبد الناصر على سؤال مباشر لمجلة لوك الامريكية عما اذا كنتم ستستولون على القناة حتى لو ظل عرض الولايات المتحدة وبريطانيا بمساعدتكم فى بناء السد العالى قائما ؟

اجاب بقوله : « لقد كنا ندرس مسألة تأميم القناة ، ولكننا لم نكن توصلنا الى قرار فجعلتمونا أنتم نستقر على القرار » .

خطة محكمة لتحرك القوات بحيث تبقى القوات فى هذه المدن الى ان تصدر اليها تعليمات للتحرك .. فقط القادة هم الذين كانوا يعرفون الخطة وتفاصيلها ..

كان أساس الخطـة أن تستمع القوات الى خطاب جمـال عبد النـاصر .. اولا .. موضـوع عادى جـدا أن يجلس كل المواطنين فى مصر ليستمعوا الى اى خطاب لعبد النـاصر .. بل أن الموضوع غير العادى هو ألا يستمع الناس الى خطابات عبد الناصر .. وكانت التعليمات لدى القيادات أن تتحرك بقواتها للاستيلاء على مبـانى ومنشـآت شركة قناة السويس عنـدما يأتى ذكر اسم ((**فيردناند دى ليسبس**)) فى خطاب عبد الناصر ..

فكانت كلمـة السر .. هى ((**فيردناند دى ليسبس**)) ووقف جمال عبد الناصر يخطب فى الجماهير الهادرة لمدة سـاعة ونصف ساعة قبل أن يذكر اسم ((**فيردناند دى ليسبس**)) ... وعنـدما وصل فى خطـابه الى الحـديث عن « فيردناند دى ليسبس » كانت القوات تنطلق لتؤدى مهمتها ..

وعاد عبد الناصر فى خطابه يكرر أكثر من مرة اسم الرجل الذى اقنع الخديوى بحفر القناة .. ليؤكد على القوات أن تتحرك وتؤدى مهمتها ..

واستمر فى القاء خطـابه ، ثم قرأ القرار بتأميم شركة قنـاة السويس .. وأخذ يشرحه .

وكان قد مضى وقتا كافيـا لكى تكون القـوات انتهت من أداء مهمتها ، وبعد أن تأكد وفقا للبرنامج الزمنى الذى أعده أن الخطـة قد نفذت نظر الى ساعته ثم قال فى نهاية خطابه ..

« الآن وانا أتكلم اليكم يقوم اخوة لكم من أبنـاء مصر ليديروا شركة القنال ، ويقومون بعمل شركة القنال .. الآن فى هـذا الوقت يتسلمون شركة القنال .. شركة القنـال المصرية لا شركة القنـال الأجنبية .. قاموا ليتسلموا شركة القنال ومرافقها ، ويديروا الملاحة

فى القناة .. القنـــاة التى تقع فى أرض مصر ، والتى تخترق أرض مصر ، والتى هى جزء من مصر ، وملك لمصر .. نقوم الآن بهذا العمل لنعوض ما فات ، ولنعوض عن الماضى ، نبنى صروحا جديدة للعزة والكرامة .. وفقكم الله .. والسلام عليكم ورحمة الله » .

حكاية على هامش الحكاية :

هذه الحكاية القصيرة لمجرد التوضيح فقط . ولبيان كيف ذكر عبد الناصر اسم « فيردناند دى ليسبس » اكثر من مرة .

انها فقرات من الخطـــاب الذى ألقاه جمال عبد الناصر فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ ، وأعلن فيه تأميم القناة ..

وفى الخطاب روى حكايته مع الغرب كاملة .. وقصـــة لقائه مع يوجين بلاك فقال :

وحينما وصل يوجين بلاك ، وهو مدير البنك الدولى ، وبدأ يتكلم معى فى تمويل السد العالى ، قال اننا بنك دولى ولسنا بنكا سياسيا ، وليس لى شـــان بامريكا مطلقا ، فانا مستقل واقول الراى الذى اومن به .

وقلت له : كيف يكون مجلس الادارة ممثلا لدول ، ولا يكون بنكا سياسيا فمجلس الادارة اغلبه من الدول الغربية السائرة فى فلك امريكا .

وابتدات انظر الى مستر بلاك وهو جالس على الكرسى وكنت اتخيل اننى اجلس امام فرديناند دلسبس .

وعاد بى تفكيرى الى الكلام الذى كنا نقرؤه ففى عام ١٨٥٤ وصــل الى مصر فرديناند دلسبس وذهب الى محمد سعيد باشا ، الخديوى ، وجلس بجانبه وقال له نريد ان نحفر قناة السويس ، وهذا المشروع سيفيدك فائدة لا حد لها ، فهو مشروع ضخم وسيعود على مصر بالكثير .

وعندما كان بلاك يسترسل فى كلامه معى ، كنت احس بالعقد الموجودة فى الكلام الذى يقوله ويعود بى التفكير الى فرديناند دلسبس .

ثم قلت له : نحن عندنا عقدة من هذه الموضوعات ونحن لا نريد أن نرى كرومر في مصر مرة ثانية ليحكمنا ، عقدوا في الماضي قروضا ، وفوائد على القروض ، وكانت النتيجة أن احتلوا بلدنا ، فارجوك أن تضع هذا الاعتبار في نفسك ، وفي كلامك معى ، فنحن عندنا عقدة من دلسبس ، ومن كرومر ، عندنا عقدة من الاحتلال الاقتصـــادى ، هذه هي الصورة التي صورت لي .. صورة دلسبس حينمـــا وصل الى مصر .. وصل دلسبس الى مصر في ٣٠ نوفمبر عام ١٨٥٤ ، وصل الى الاسكندرية ، وبدأ يعمل في حذر وخديعة ، وفي ٧ ديسمبر عام ١٨٥٤ وبعد أن اتصل دلسبس بالخديوى محمد سعيد حصل على امتياز القنال ، وصدر هذا الامتياز الذى منحه سعيد قال الآتى :

ـ حيث ان صديقنا مسيو فرديناند دلسبس قد لفت نظرنا الى الفوائد التي قد تعود على مصر من توصيل البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر ، بواسطة طريق ملاحى للبواخر ، واخبرنا بالفوائد التي تعود على مصر ، واخـــبرنا عن امكان تكوين شركة لهذا الغرض من أصحاب رءوس الاموال ، فقبلت الفكرة التي عرضها علينا ، واعطيناه بموجب هذا تفويضا خاصا بانشاء وادارة شركة لحفر قنـــاة السويس ، واستغلال القناة بين البحرين .

وكان هذا الكلام عام ١٨٥٤ ، وفي عام ١٨٥٦ اى منذ مائة عام صدر فرمان بتكوين الشركة واخذت مصر من الشركة ٤٤٪ من الاسهم ، والتزمت بالتزامات لدلسبس .. شركة دلسبس شركة خاصة ليس لها علاقة بحكومات ، ولا بسيطرة ، ولا احتـــلال ، ولا استعمار .. دلسبس قال للخديوى أنا صديقك ، وقد جئت لافيدك ، وأعمل قناة بين البحرين تستفيد منها .

وتكونت شركة قناة السويس ، واشتركت مصر ب ٤٤٪ من الاسهم وتعهدت مصر بأن تورد العمال الذين سيحفرون القنـــاة بأرواحهم وجماجمهم ودمائهم ، ١٢٠ الف عامل قاموا بحفر القناة مجانا دفعنا ٨ مليون جنيه بعد ذلك ولاجل أن يتنازل دلسبس عن بعض الامتيازات كنا ندفع له أيضا ..

وكان من المفروض أن ناخذ ١٥ ٪ من ارباح الشركة زيادة على ارباح اسهمنا

وتنازلنا عن ١٥٪ من الارباح .. وبعـد ان كانت القنـاة محفـورة لمصر كما قال دلسبس للخديو اصبحت مصر ملكا للقناة .

وفى الاتفاق الذى عقد فى ٢٢ فبراير ١٨٦٦ ، جاء فى المادة ١٦ انه بما ان الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مصرية فانها تخضع لقـوانين البلاد وعرفها ، والى الآن لم تخضع الشركة لقوانين البـلاد ولا لعرفها لانها تعتبر نفسها دولة داخل الدولة .

والمنازعات التى تنشا فى مصر بين الشركة وبين الافراد من اية جنسية تختص المحاكم المصرية بالفصل فيها تبعا للاوضاع التى تقررها قوانين البلاد وعاداتها . وتختص المحاكم المصرية بالفصل فى المنازعات التى قد تنشـا بين الحكومة المصرية والشركة ويقضى فيها طبقا للقوانين المصرية .

ونتيجة الكلام الذى قاله دلسبس للخديوى عام ١٨٥٦ .. ونتيجة الصداقة والديون .. هى احتلال مصر عام ١٨٨٢ .

واستدانت مصر بسبب هذا الموضوع .. فماذا فعلت ؟ . اضطرت مصر فى عهد اسماعيل الى بيع نصيبها من الاسهم وقدره ٤٤ ٪ من اسهم الشركة .. وفورا ارسلت انجلترا تشترى نصيب مصر من الاسهم فى الشركة .. اشـتـرتها بأربعة ملايين جنيه . وبعد ذلك تنازل اسماعيل عن الارباح التى كان ياخذها للشركة وقدرها ٥ ٪ نظير تنازلها عن بعض الامتيازات التى اعطيت لها فاضطر بعد ان اشترت انجلترا الـ ٤٤٪ من الاسهم باربعة ملايين جنيه مقابل ان يدفـع لانجلترا سنويا ٥٪ نظير الارباح التى كان قد تنازل عنها ، فدفع لها أكثر من أربعة ملايين جنيه اى ان بريطانيا اخذت نصيب مصر من الاسهم وقدره ٤٤٪ بدون مقابل .

هذا هو ما حدث فى القرن الماضى . فهل يعيد التاريخ نفسه مرة ثانية ويعود الى الخداع والتضليل ؟ وهل يكون التحكم الاقتصادى سببا فى القضاء على حريتنا السياسية ؟.. كلا .. لا يمكن ان يعود التاريخ مرة اخرى ونحن اليوم نقضى على آثار الماضى البغيض التى تسبب فيها المستعمرون بالخداع والتضليل .

واليوم فان قناة السويس التى مات من ابنائنا فى حفرها ١٢٠ الفا .. حفروها بالسخرة ودفعنا فى تاسيسها ٨ مليون جنيه .. قناة السويس التى اصبحت دولة داخل الدولة .. والتى اذلت الوزراء والوزارات .. هذه القناة قناة مصر ، شركة مساهمة مصرية اغتصبت بريطانيا منا حقنا فيها وهو الـ ٤٤ فى المائة من اسهم الشركة .. وما زالت بريطانيا من وقت افتتاح القنال حتى الآن تاخذ فوائد مقابل هذه الاسهم والدول كلها تاخذ فوائد والمساهمون فيها ياخذون فوائد ..

وبلغ دخل شركة قناة السويس فى عام ١٩٥٥ ـ ٣٥ مليون جنيه اى مائة مليون دولار وناخذ منها نحن الذين مات من ابنائها ١٢ الفا حفروها مليـون جنيه فقط اى ٣ مليون دولار ؟

شركة قناة السويس التى قامت كما قال الفرمان من أجل مصلحة مصر ومن أجل منفعة مصر ؟

هل تعلمون مقـدار المسـاعدة التى ستعطيها لنا امريكا وانجلترا فى خمس سنوات ؟ ٧٠ مليون دولار .. وهل تعلمون من الذى ياخذ المائة مليون دولار وهى دخل الشركة السنوى ؟ هم الذين ياخذونها بالطبع .

وليس عيبـا أن أكون فقيرا واقترض لكى أبنى بلدى ، او احاول ان اجد مسـاعدة لاجل بلدى .. ولكن العيب هو ان امتص دماء الشـعوب .. وأمتص حقوق الشعوب .

اننا لن نكرر الماضى بل سنقضى على الماضى .. سنقضى على الماضى بان نستعيد حقوقنا فى قناة السويس .. هذه الاموال اموالنا .. وهذه القناة ملك لمصر لانها شركة مساهمة مصرية .

حفرت قناة السويس بواسطة ابناء مصر ، ومات ١٢٠ الف مصرى فى حفرها .. شركة قناة السويس الموجودة الآن فى باريس شركة مغتصبة .. اغتصبت امتيازاتنا . وعندما جاء دلسبس الى مصر كان مجيئه يشبه مجيء بلاك الى مصر للتحدث معى ..

والتاريخ لن يعيد نفسه ، بل على العكس سنبنى السد العالى وسنحصل على حقوقنا المغتصبة .. سنبنى السد العالى كما نريد .. وسنصمم على هذا ، ٣٥ مليون جنيه كل سنة تاخذها شركة القناة .. فلتاخذها مصر .. مائة مليون دولار كل سنة تحصلها شركة القناة لمصلحة مصر .. فلنحقق هذا الكلام وتحصل مصر على المائة مليون دولار لمنفعة مصر ايضا ..

ولهذا فاننا اليوم أيها المواطنون حينما نبنى السد العالى ، فانما نبنى ايضا سد العزة والحرية والكرامة ونقضى على سدود الذل والهوان .

وتعلن ـ مصر كلها ـ جبهة واحدة أنها كتلة وطنية متكافئة متحدة .. مصر كلها ستقاتل لآخر قطرة من دمائها .. كل واحد من ابنائها سيكون مثل صـلاح مصطفى ومثل مصطفى حافظ .. كلنا سنقاتل لآخر قطرة من دمائنا فى سبيل بناء بلدنا ، وفى سبيل بنـاء مصر .. لن نمكن منا تجار الحروب .. لن نمكن منـا المستعمرين .. لن نمكن منا تجار البشر ، وسنعتمد على سواعدنا وعلى دمائنـا

ونحن اغنياء ، لقد كنا متهاونين فى حقوقنا ونحن نستردها ومعركتنا مستمرة ، تسترد هذه الحقوق خطوة خطوة وسنحقق هل سنبنى مصر لتكون قوية .. وسنبنى مصر لتكون عزيزة .

ولهذا قد وقعت اليوم ، ووافقت الحكومة على القانون الآتى :

* * *

وارتفع صوت جمال عبد الناصر بعد ذلك وهو يقول :

قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس شركة مساهمة مصرية ..

وانتهت هذه الحكاية .. على هامش حكاية تأميم القناة ..

وكانت هناك بعد ذلك حكايات كثيرة أخرى على هامش قصة التأميم ، وبعدها ، كتبها الشعب المصرى بدماء أبنائه ... تحت قيادة البطل الزعيم .. جمال عبد الناصر ..

● حكاية العدوان الثلاثى ●

حرب السويس .. بداية التحول

الزمان : ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، بعد تأميم قناة السويس بحوالى شهرين .

المكان : مسجد الأزهر الشريف .. جمال عبد الناصر يعتلى المنبر ويقف وقفة يدعو الى الجهاد ..

الحكاية : لم تشأ انجلترا ، وفرنسا ، أن يمر قرار تأميم القناة ، ليس فقط حتى لا تخرج من أيديهما وهو أمر هام جدا بالنسبة للغرب الذى أقنع الخديوى باتفاقية القناة أساسا لخدمة أهدافه ، ومصالحه الاقتصادية والسياسية ، ولكن أيضا حتى لا تنمو زعامة عبد الناصر وتتضخم ، بل لعل الدولتين وجدتا الفرصة سانحة لتنفيذ مخططهما بالقضاء على جمال عبد الناصر ..

وفجأة فى ٢٩ أكتوبر تقدمت قوات من اسرائيل لتقوم بهجوم على مواقعنا دون أى سبب ..

اعلنت بريطانيا انها لن تستغل الفرصة ، وحينما وجدت أن قواتنا تسيطر على ارض المعركة . حدث شىء غريب فى ٣٠ أكتوبر ، حدث عبد الناصر الشعب فيه يوم ١ نوفمبر : « قدم الينا انذار بوقف القتال ، وقف القتال والقوات الاسرائيلية المعتدية لا تزال داخل الأراضى المصرية ، ويطلب من مصر ومن اسرائيل الانسحاب عشرة أميال من قناة السويس ، ويطلب من مصر ومن اسرائيل أيضا

قبول احتلال بور سعيد والاسماعيلية بواسطة القوات المسلحة البريطانية والفرنسية من اجل حماية الملاحة فى القناة » . وقالت بريطانيا فى انذارها « اذا لم يصل الرد فى ١٢ ساعة فانها ستعمل على تنفيذ ذلك » .

واعلن عبد الناصر رفضه للانذار البريطانى ، ودوى صوته وهو يقول : « والآن ايها المواطنون ، ونحن نواجه هذا الموقف ، هل نقاتل أو نسلم »

« سنقاتل ايها المواطنون ، قوى الظلم التى تريد انتهاك حريتنا .. سنقاتل أيها الاخوة فى سبيل حرية مصر ، وفى سبيل حرية الشعب المصرى ، سنقاتل كما كنا دائما ، فى حرب شاملة ، جنودها ، الشعب المصرى جنبا الى جنب مع قواته المسلحة .

وقال فى نهاية خطابه التاريخى « ان كل فرد منكم جندى فى جيش التحرير الوطنى ، لقد صدرت الأوامر بتوزيع السلاح . وعندنا منه الكثير ، وسنقاتل فى معركة مريرة ، سنقاتل فى كل معركة من قرية الى قرية ، ومن مكان الى مكان ، ليكن كل فرد منكم ايها المواطنون جنديا فى القوات المسلحة حتى ندافع عن شرفنا ، وحتى ندافع عن كرامتنا ، وحتى ندافع عن حريتنا .. **وليكن شعارنا اننا سنقاتل ولن نسلم .. سنقاتل .. سنقاتل ولن نسلم »** .

« وأنا اعاهدكم انى سأقاتل معكم من اجل حريتكم ، كما عاهدتكم من قبل لآخر قطرة من دمائى » .

وبعدها بيوم واحد ، وفى ٢ نوفمبر كان صوت عبد الناصر يدوى من فوق منبر الأزهر الشريف ، وهو يقول : **انا فى القاهرة** وسأقاتل معكم ضد اى غزو ، وسنقاتل الى آخر نقطة دم ، **ولن**

نسلم أبدا . وسنبنى بلدا وتاريخا ومستقبلا ، وهذا شعار كل مصرى ، واذا كانت بريطانيا تعتبر نفسها دولة عظمى ، وتعتبر فرنسا نفسها دولة عظمى أيضا ، فسنعتمد على الله ، وعلى انفسنا ، وسنجاهد ونكافح ، ونقاتل ، وننتصر باذن الله ..

ويروى جمال عبد الناصر القصة الحقيقية للعدوان فى مجلة آخر ساعة ونترك جمال عبد الناصر يروى أيضا هذه الحكاية كاملة ، فقد قال بالنص (١) :

ان العمليات العسكرية التى بدأت فى سيناء مساء ٢٩ أكتوبر لها مقدمة صغيرة احب أن امر بها قبل أن ادخل الى الموضوع .

مقدمة صغيرة ، مقدمة سياسية ، شهدتها مدينة نيويورك مقر الأمم المتحدة فى مطلع شهر أكتوبر نفسه ، الذى شهدت الأيام الأخيرة منه عمليات سيناء .

فى اكتوبر بحث مجلس الأمن مشكلة قناة السويس ، وانتهى فيها الى مبادىء ستة تستهدف الوصول الى حل سلمى لهذه المشكلة .

راى أن تدار حولها مفاوضات تكفل للعالم المهتم بالملاحة فى قناة السويس كل ما يدعوه الى الاطمئنان على حرية الملاحة وعلى كفايتها .

وقبل أن تنتهى جلسات مجلس الأمن ، وبعد ان انتهت جلسات

---

(١) آخر ساعة ٥ ديسمبر ١٩٥٦ .

مجلس الامن ، كانت هناك اجتماعات تعقد فى مكتب المسيو داج همرشيلد ، السكرتير العام للأمم المتحدة ، ويشترك فيها الدكتور محمود فوزى ، وزير خارجية مصر ، والمسيو سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا ، والمسيو كريستيان بينو ، وزير خارجية فرنسا .

ولم تكن هذه الاجتماعات التى تعقد فى مكتب السكرتير العام للأمم المتحدة ، وبحضوره ، هى المفاوضات التى دعا اليها مجلس الأمن ، وانما كانت من غير شك الاتصالات الاستكشافية التى لا بد أن تسبقها .

وانتهت اجتماعات نيويورك الى تفاهم على بعض النقط .

ثم افترق المجتمعون على أن يلتقوا مرة ثانية قريبة ، ليواصلوا البحث ، ويتمموا تنسيق وجهات النظر ، وتركوا للمسيو داج همرشيلد مهمة تحديد موعد الاجتماع المقبل .

ولم تمض أيام حتى تلقت الحكومة المصرية رسالة من السكرتير العام للأمم المتحدة يقترح فيها مكان الاجتماع الجديد وزمانه .

وكان المكان هو : جنيف .

وكان الزمان هو : يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر .

وبعثت مصر من فورها الى السكرتير العام للأمم المتحدة تخطره بموافقتها على المكان والزمان اللذين اختيرا للاجتماع .

هذا بينما تلكأت الحكومة البريطانية ، والحكومة الفرنسية معها .

ثم بدأت الأخبار تجيء من لندن وباريس ، بأن الأمر ينطوي على أكثر من تلكؤ ، وبات واضحا أن لندن وباريس يحاولان انتحال المعاذير حتى تتهربا من الموعد المضروب يوم ٢٩ أكتوبر .

لقد كانت الحكومتان ، حكومة لنـــدن وحكومة باريس ، قد ارتبطتا بموعد آخر .

في نفس يوم ٢٩ أكتوبر .

في صحراء سيناء .. وليس في جنيف .

ولم يكن الاجتماع مع مصر وانما مع اسرائيل .

ولم يكن لايجاد حل لمشكلة قناة السويس ، وانما القصد من الاجتماع الثلاثي الجديد ، هو تدمير مصر تدميرا شاملا .. أجل تدميرا كاملا شاملا .

وتلك هي الحقيقة التي لا تستطيع اطراف المؤامرة الثلاثية الآن انكارها أو التنصل من تبعاتها .

وهي الحقيقة التي لا يستطيع هؤلاء الأطراف الثلاثة ان ينتحلوا لها عذرا من اقدام الحكومة المصرية على تأميم قناة السويس .

لقد أوضحت المؤامرة ، طريقتها ، وخطتها ، والأطراف المشتركة في تنفيذها ان الأمر لم يكن أمر قناة تمر في مصر ، وانما كان الأمر أمر مصر كلها .. مصر نفسها بكل ما تمثله اليوم ، وكل ما تنادي به ، وكل ما كرست حياتها من أجله ، لأنه دورها الذي لا مناص لها من القيام به .

ان فرنسا مثلا لم تحاول أن تخفى أن حماستها فى قتال مصر كانت دفاعا عن موقفها اليائس فى الجزائر .

وبريطانيا مثلا لم تحاول أن تخفى أن فى الجذور الدفينة لعملها ضد مصر ، أن قوة مصر العسكرية ـ كما قال المسئولون الانجليز فى مجلس العموم البريطانى ـ اصبحت خطرا يهدد بريطانيا .

ونفوذ مصر السياسى فى المنطقة أصبح ـ كما قال نفس المسئولين الانجليز ـ خطرا يهدد نفوذ بريطانيا .

واذن فالمؤامرة لم تكن تقصد ايجاد حل لمشكلة قناة السويس .

ولو كان ذلك هو الهدف لتم اجتماع جنيف .

وانما كان القصد أبعد من ذلك ، وأعمق ، وأشمل .

الأمر أمر بلد يريد أن يستقل .

ولكن هل يرضى له الاستعمار أن يستقل .. وكيف يستقل ؟

الأمر امر بلد يريد أن يصبح قويا .

ولكن هل يرضى له الاستعمار أن يقوى .. وكيف يقوى ؟

الأمر امر بلد كسر احتكار السلاح !

ولكن هل يرضى له الاستعمار أن يكسر احتكار السلاح .. وكيف يسمح له ؟

الأمر أمر بلد يدعو للحرية ، يدعو بها لنفسه وللآخرين .

ولكن هل يتركه الاستعمار يدعو للحرية .. وكيف يتركه ؟

الأمر امر بلد يريد أن يحرر اقتصاده .

ولكن هل يرضى الاستعمار أن يتحرر اقتصاده .. كيف يتحرر ؟

الأمر أمر القومية العربية التي أصبحت عقيدة منطقة بأسرها ؟
ولكن ...

لقد كانت هذه هي الأسباب الحقيقية لاجتماع أطراف المؤامرة الثلاثية في سيناء .. كانت تلك تمهيدا للمقدمة للعمليات العسكرية التي بدأت مساء ٢٩ أكتوبر .

منذ اللحظة الأولى التي تلقينا فيها التقارير عن الهجوم الاسرائيلي ادركنا اننا نواجه هجوما عسكريا حقيقيا وليس مجرد حادثة من الحوادث التي كثر تكرارها على الجنود .

وكانت الأنباء الأولى عن هذا الهجوم تبين أن اتجاهه كان : الطريق الجنوبي من سيناء ..

وهو طريق لم يكن الاسرائيليون يستطيعون منه الحاق أي خسائر بأفرادنا .. هذا واذا كان الأمر مجرد غارة من الغارات التي يشنونها للانتقام .

ذلك أن كل مراكزنا على الطريق الجنوبي خالية تماما .. ليس فيها الا نقط حدود لمجرد الانذار والتبليغ .

ولقد كانت أوضاعنا الدفاعية في ذلك اليوم كما يلي :

● قطاع غزة : مكان الحرس الوطني يتحمل مسئولية الدفاع عنه من غير عتاد ثقيل مع الطلائع الاولى لجيش فلسطين ، فقد كنا ندرك دائما أنه من الناحية العسكرية البحتة يسهل عزل هذا القطاع من باقي الجبهة .

● خط الحدود المصرية ـ الفلسطينية : وكانت هناك ست كتائب من القوات المسلحة النظامية تتولى الدفاع عنه على النحو التالى :

١ ـ رفح : ويتولى الدفاع عنها كتيبتان من المشاة بأسلحتهما .

٢ ـ العريش : ويتولى الدفاع عنها كتيبتان من المشاة بأسلحتهما ومنها أورطة من دبابات الشيرمان الأمريكية ، وكذلك كانت العريش مقر منطقة الشئون الادارية .

٣ ـ ابو عجيلة : ويتولى الدفاع عنها كتيبتان من المشاة بأسلحتهما المعاونة .

وكانت كل قوة الجيش الضاربة تعسكر غرب القناة .

وكان تقديرنا العام للموقف ـ الذى بنى على أساسه توزيع قواتنا فى الجبهة ـ هو كما يلى :

ـ اذا كان هدف اسرائيل هو القيام بحوادث أو غارات فان اتجاهها يجب أن يكون اما الى قطاع غزة واما الى مواقعنا المتقدمة على الحدود .

فهناك يمكن الحاق خسائر بنا فى الأفراد تخدم الغرض المقصود من القيام بالحوادث والغارات .

اما اذا كان هدف اسرائيل هو القيام بهجوم عام على مصر .. فان الطريق الذى يجب أن تأخذه قواتهم هو الطريق الجنوبى حتى تستطيع قواتهم القيام بحركة التفاف حول الطريق الأوسط المؤدى الى أبو عجيلة .

والآن فيجب أن تبقى قواتنا النارية بعيدة الى الوراء ، حتى تكون فى الموقف الذى يسمح لها باختيار الوضع الملائم لها ، واختيار مكان المعركة .

كان هذا هو التقدير العام للموقف .

وضع منذ اغسطس ١٩٥٥ ، وظل ساريا حتى يوم ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٥٦ يوم بدأت المؤامرة .

واترك الآن قواتنا .. ومواقعنا ، وانتقل الى قوات العدو ومواقعه .

وحين أتكلم الآن عن قوات العدو ومواقعه ، فانا لا أعتمد فى هذا على الاستنتاج ولا على الظن .

وانما أفعل ذلك معتمدا على الحقائق المستمدة من وثائق العدو ذاتها .

لقد اسقطت مدفعية الأردن طائرة الكولونيل « اساف سمحونى » الذى كان مكلفا بقيادة عمليات سيناء ، كانت اوراق الضابط الاسرائيلى بقرب جثته مع حطام الطائرة .

ومن هذه الأوراق ، وعلى أساس ما فيها ، مؤيدا بما رأيناه امامنا فعلا من تحركات وعمليات .. أبنى كلامى .

لقد كانت الخطة الاسرائيلية ـ أو بمعنى أدق دور اسرائيل فى المؤامرة الكبرى ـ كما يلى طبقا لنصوص الوثائق وبينها اوامر العمليات الفعلية التى كانت مع جثة آساف سمحونى :

١ - اللواء رقم ٢٠٢ :

ومهمته احتلال ممر متلا ..

وعملياته لتحقيق هذا الهدف هى : تهبط الكتيبة رقم ٨٩٠ بالجو عند سدر الحيطان ــ تتحرك قوات اللواء من الكونتيلا ثم الى نحل ثم الى سدر الحيطان ثم تتجه الى ممر متلا .

٢ ـ المجموعة رقم ٣٨ المكونة مما يلى :

اللواء السابع المدرع ــ اللواء الرابع المشاة ــ اللواء السابع والثلاثون مشاة ــ ومهمتها التقدم راسا الى الاسماعيلية بعد احتلال ابو عجيلة .

٣ ـ المجموعة رقم ٧٧ المكونة مما يلى :

اللواء السابع والعشرين المدرع ــ اللواء الأول المشاة ــ اللواء الحادى عشر مشاة ــ اللواء الثانى عشر مشاة ــ وكانت مهمتها أن تحتل رفح والعريش ، وبذلك يتم عزل قطاع غزة ، ثم يتم احتلاله .

ـ اللواء التاسع :

وكانت مهمته أن يتحرك من ايلات الى شرم الشيخ لاحتلالها .

وكان معنى هذه الخطة ان القوات الاسرائيلية تتحرك على على الجبهة الاصلية ، فى ثلاثة محاور .

المحور الأول : لواء من المشاة وكتيبة من الهابطين بالبراشوت على ممر ميتلا .

المحور الثانى : لواء مدرع من لواءين من المشاة على ابو عجيلة ثم الاسماعيلية .

المحور الثالث : لواء مدرع مع ثلاثة الوية من المشاة على رفح والعريش وغزة .

ولم تكن لنا مواقع فى مواجهة محور الحركة الاسرائيلى الأول، أما المحور الثانى فلم يكن لنا أمامه الا كتيبتان فى موقع أبو عجيلة .

وفى المحور الثانى كان كتيبتان من المشاة مع الاسلحة المعاونة فى رفح .. وكتيبتان من المشاة وأورطة دبابات شيرمان مع الاسلحة فى العريش . وبدأت العمليات يوم ٢٩ اكتوبر مع غروب الشمس .

وكانت الحوادث تجرى بسرعة مساء ٢٩ اكتوبر .

تحركت القوات الاسرائيلية من ايلات الى الكونتيلا : الى تمد من غير مقاومة ـ بالطبع ـ لانه لم تكن لنا قوات فيها حيث ان وضع اى قوات فى هذه المنطقة يعرضها للعزل .

وفى نفس الوقت هبطت كتيبة المظلات عند مضيق سدر الحيطان .

انه هجوم عام .

وتتبعنا اخبار العالم : نحاول أن نعرف رد الفعل ، خصوصا فى لندن وباريس .

ومن لندن جاء على لسان المتحدث الرسمى لوزارة الخارجية البريطانية ، ان الحكومة البريطانية لا تنوى استغلال القتال الذى نشب فجأة فى سيناء لصالحها .

واذن ، فتوضع خطتها لمواجهته موضع التنفيذ .. وعلى الفور كان هيكل خطتنا هو :

دفاع الحدود .

وحركة فى الداخل ..

دفاع على الحدود يشغل العدو ويعوق تقدمه .

وحركة فى الداخل تتجه الى مراكز حشد تتحرك منها قواتنا الضاربة لتواجه العدو فى المعركة الفاصلة ، فى المكان والزمان اللذين يلائمانها ويحققان لها أوفر عوامل النصر .. وكان تقديرنا أن يتم ذلك يوم ٥ أو ٦ من نوفمبر .

وهكذا فى نفس الليلة ـ مســاء ٢٩ اكتوبر قامت قواتنا بالتحركات التالية :

● لواء من المشاة يتحرك الى ممر ميتلا فى مواجهة سدر الحيطان ليمنع تحرك قوات العدو غرب سدر الحيطان .

● كتيبة مشاة تتحرك على الطريق الساحلى الى العريش لتعزيز دفاعها .

● قواتنا الرئيسية الضاربة ، مجموعتان عاملتان من المدرعات قوامهما دبابات ت ٣٤ التشيكية ومدافع س.ى ١٠٠ الروسية مع قوات المشاة الرئيسية ، وكان للحشد ، وقبل منتصف الليل ، كانت هذه القوة تعبر قناة السويس الى الشرق ، متجهة باقصى سرعتها الى المكان المحدد لها .

وحتى هذا الوقت لم يحدث قتال بيننا وبين العدو ، ولا دارت اشتباكات .

وطلع صباح ٣٠ اكتوبر ..

وبدأت الاشتباكات ..

وكانت مقاتلات سلاح الطيران المصرى طليعة المعركة مع اول ضوء فى الفجر .

وكان تركيزها الأول على كتيبة المظلات فى سدر وعلى اللواء المتقدم لتعزيزها على الطريق الجنوبى وقد استطاعت هذه المقاتلات فعلا ان تعوق تقدم هذا اللواء الى نخل التى كانت منتصف طريقه الى تعزيز جنود المظلات .

اما النشاط الأرضى فى ذلك اليوم فكان كله او معظمه تحركات على الطريق الأوسط الى منطقة التجمع فى بير روض سالم .

وبدأ العدو نشاطه فى الصباح على القسيمة .

وكانت لنا فى القسيمة كتيبة استطلاع تستعمل عربات الجيب ، وكان عملها الأساسى تأخير تقدم العدو ، وانسحاب امامه لتنضم الى قواتها الأصلية فى ابو عجيلة وتستعمل فى انسحابها طريق الأسفلت بين القسيمة وابو عجيلة .

واستطاعت هذه الكتيبة ان تشغل العدو وتضيع عليه النهار طوله ، فلم يتأهب لهجومه على ابو عجيلة الا عند الليل .

ولم تستطع هجمات الليل ضد ابو عجيلة ان تؤثر فى مقاومتها ..
واعود الآن فأذكر ان المعركة فى ابو عجيلة كانت تدور بين :

لواء مدرع اسرائيلى ولواء من المشاة .

ضد كتيبتين من المشاة مع اسلحة معاونة .

ومع ذلك — اعود فأقول ثانية — لم تستطع هذه القوات المهاجمة

ان تتغلب على مقاومة القوات المصرية المدافعة عن أبو عجيلة التى كان العدو يريد ان يقضى بأسرع ما يمكن على مواقعها الدفاعية وبهذا يندفع غربا الى الاسماعيلية فى عملية سريعة خاطفة ومن هنا يتبين لماذا حشد العدو ضد هذا الموقع الذى يتكون من كتيبتين من المشاة لواء مدرع ولواءين من المشاة .

ولم يضيع العدو وقتا فى سبيل تحقيق غرضه .

وفى ليلة ٣١/٣٠ بدأ هجوم ليلى ضد ابو عجيلة .

ولم يستطع العدو أن يحقق اى نجاح .. وفشل الهجوم .

وطلع صباح ١١ اكتوبر لينسحب العدو بعيدا عن نيران أبو عجيلة .

ولكنه انسحب لينظم نفسه ويبدأ هجوما نهاريا ضد الموقع ، مع تمهيد من طيرانه للهجوم بغارات مستمرة ضد مواقعنا فى أبو عجيلة .

واستطاعت قوات أبو عجيلة أن تسقط ثمانى طائرات .

وفشل هجوم العدو بعد أن تكبد خسائر كبيرة فى الدبابات .. أربعون دبابة تركت فى أرض المعركة بالاضافة الى خسائره الكبيرة فى الأفراد .

وانتهى نهار ٣١ بدون أن يحقق العدو اى نجاح ، ولكنه انسحب منهزما بعد أن تكبد خسائر فادحة .

وكان النشاط على الأرض فى نفس اليوم ــ فيما عدا هذا الذى ذكرته واستطردت فيه عن أبو عجيلة هو :

استمرار حشد القوة الضاربة المدرعة فى منطقـة بير روض سالم تمهيدا ليوم المعركة الفاصلة .

● تقدم طابور مدرع خفيف عبر الصحراء عن طريق « وادى المليز » فانقض من الناحية الأخرى على الفرقة الهابطة بالباروشوت حتى يمنع تعزيزها ويشارك فى ابادتها واحتلال موقعها .

واترك العمليات العسكرية هنا قليلا .. الى العمليات السياسية التى جرت فى نفس اليوم — يوم ٣٠ اكتوبر .

وينبغى هنا ان اقول على الفور : ان الانذار البريطانى كان مفاجأة لنا .. كنا نحسب حساب عمل عدائى ضـد مصر من بريطانيا وفرنسا ، ولكن كنا نستبعد ان تشترك بريطانيا مع اسرائيل فى هذا العمل .

وكان احتمال تدخل الانجليز فى معركة سيناء بشكل أو بآخر قائما فى حسابنا ولكنه لم يكن الاحتمال الغالب وكانت نسبته — اذا كان لابد أن استعمل الأرقام — هى خمسون فى المائة فقط .

ولما جاء الانذار ارتفع احتمال التدخل العسكرى البريطانى ضدنا الى سبعين فى المائة .. ولكن مرة اخرى لم اكن واثقا تماما من ان هذا الاحتمال سهل الوقوع .

وكنت احاول أن اقدر الموقف من الناحية البريطانية .

بل وكنت احاول ان أضع نفسى مكان رئيس وزراء بريطانيا واسأل نفسى :

— اذا كنت مكانه .. فكيف أتصرف ؟

وكان اعتقادى ان اى عملية عسكرية تقدم عليها بريطانيا ضدنا ــ وخصوصا ومن باب اولى اذا كانت تقدم عليهـا متحالفة مع فرنسا واسرائيل ــ لن تكون لها نتيجة بالنسبة لبريطانيا الا كارثة محققة ، بصرف النظر عن النتيجة العسكرية البحتة التى يمكن أن يسفر عنها القتال .

ان بريطانيا لها مصالح هائلة فى الشرق الأوسط ، وحماقة عسكرية من هذا النوع ستقضى على هذه المصالح .

وليس معنى هذا انى كنت اعتقد ان الحديث عن استعمال القوة ضد مصر « تهويش » وانما معناه اننى كنت استبعد ان يلجأ مسئول بريطانى الى مثل هذه الخطوة .

وعلى اى حال فلقد ارتفعت نسبة اقدام بريطانيا ــ كما قلت على عمل عسكرى ضدنا ــ بعد هذا الانذار ــ الى سبعين فى المائة .

ومع ذلك ــ اقولها ثانية ــ ظلت فى تصويرى للامر بقية من شـــك .

كنت اتمثل مصالح بريطانيا فى المنطقة .

البترول . انابيب البترول .. التجارة .. الثقافة .النفوذ السياسى .

ثم فى نهاية القائمة : قناة السويس . الشريان الحيوى لبريطانيا انها سوف تتعطل دون شك .

وفوق هذا ، ان العمل العسكرى ضد مصر لن يكون ســهلا كعمل عسكرى .

ولقد رفضنا الانذار البريطانى .

وسبعون فى المائة من تصورى انه مقدمة لعمل عسكرى .
ولكن ثلاثين فى المائة من تصورى كانت تتخيله حركة سياسية يراد بها تعقيد لما هو معقد فعلا .

تخيلت ان بريطانيا تريد منا الا نحشد جميع قواتنا ضد اسرائيل وبهذا تستطيع اسرائيل ان تحصل على نصر رخيص فى الوقت الذى نحجز فيه جزءا من قواتنا لملاقاة بريطانيا .

واعود الى الموقف العسكرى صباح يوم ٣١ اكتوبر .
كان سلاح الطيران للمرة الثانية هو الطليعة .

كانت قاذفات قنابلنا طوال الليل على مطارات العدو فى اسرائيل ، وكانت هنالك عشرون غارة على هذه المطارات .

وكانت المقاتلات المصرية من طراز ميج ١٧ قد فاجأت العدو بظهورها ، واثبتت تفوقها على طائرة « المستير ٤ » الفرنسية التى كان العدو يستعملها ويستعملها معه سلاح الطيران الفرنسى ، الذى كان قد دخل المعركة فعلا بجانب الطيران الاسرائيلى .

ولقد تاكدنا من تفوق « الميج ١٧ » فوق مطار كبريت المصرى فقد جاءت ثمانى طائرات للعدو تضربه .

وتصادف عودة ثلاث من الطائرات المصرية من هذا الطراز من عملياتها فوق الجبهة ، واذا هى تصل الى مطارها ــ مطار كبريت ــ وطائرات العدو فوقه .

وتدخلت الطائرات المصرية الثلاث فى المعركة من غير انتظار ، وانقضت على طائرات العـــدو ، واستطاعت كل واحدة منها أن تسقط واحدة من طائرات العدو بينما لجأت باقى الطائرات الى الهرب .

أما النشاط على الأرض فقد كان ما زال دائرا حول أبو عجيلة بدون أن يحقق العدو أغراضه .

وقبـل أن ينتهى اليـوم انكشفت حدود المؤامرة واستبانت خفاياها .

فى السابعة مساء كنت فى بيتى أقابل السفير الاندونيسى .

وسمعت صوت صفارات الانذار .. ثم سمعت مباشرة ازيز الطائرات المغيرة .

وأدركت على الفور انها غارة بريطانية .

كانت الطائرات المغيرة نفاثة .

والطائرات النفاثة الوحيدة فى شرقى البحر الأبيض ، لا يمكن أن تكون الا واحدة من نوعين .

الأليوشن ٢٨ الذى تملكه مصر .

أو الكانبيرا البريطانية .

وتيقنت على الفور ان بريطانيا تدخلت عسكريا فى المعركة .

وأردت أن أتأكد على أى حال ، فتركت الســفير الاندونيسى وصعدت الى سطح المنزل أراقب الغارة .. وأسمع صوت الطائرات لأتأكد أنها طائرات بريطانيا .

ثم تلقيت بعدها الاعلان البريطانى ـ الفرنسى عن بدء عمليات حربية ضد مصر .

وعلى وهج المصابيح المشتعلة التى كانت الطائرات المغيرة تلقيها على مطار القاهرة الدولى ، وكانت الغارة البريطانية الأولى عليه ، رايت المؤامرة كلها ..

ولم يكن الوهج يكشف منطقة المطار وحدها ..

وانما كان هذا الوهج يكشف فى أفكارى منطقة الشرق الأوسط بأسرها ..

اذن فالهجوم الاسرائيلى لم يكن هدفه الا عودة قواتنا الرئيسية الى سيناء ، ثم اقفالها وقطع الطريق عليها باحتلال منطقة القناة .، وبهذا يحقق العدو هدفين :

الهدف الأول : تحطيم قواتنا العسكرية شرقى القناة تحطيما تاما بعد حرمانها من المساعدة الجوية .

الهدف الثانى : دخول مصر واحتلالها بدون مقاومة اذ ان مصر ستكون بغير جيش يدافع عنها .

وكان واضحا أن علينا فى هذه اللحظة أن نراجع خططنا .

وخرجت من بيتى الى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة .

وكان هناك اجتماع كبير استقر راينا فيه على ضرورة الانسحاب السريع من سيناء ، وتوحيد نشاطنا العسكرى كله غرب القناة .

كان اجتماعنا قد استغرق ساعتين .

بدأ فى الثامنة وانتهى فى العاشرة .

وكان أهم جزء فى خطتنا ان يتم الانسحاب بسرعة قبل أن يفلت الوقت ، ويتحقق للعدو ما أراد .

تنسحب جميع قواتنا من الحدود الى منطقة القناة .

على ان يتم الانسحاب على ليلتين : ليلة ٣١ اكتوبر و ١ نوفمبر وليلة ٢/١ نوفمبر .

فى الليلة الأولى : ٣١ اكتوبر / ١ نوفمبر يتم انسحاب قوات رفح مستخدمة الطريق الشمالى .

يتم انسحاب نصف القوات المتجمعة فى منطقة الحشد عند بير روض سالم .

فى الليلة الثانية : يتم انسحاب القوات الرئيسية فى العريش .

القوات الرئيسية فى ابو عجيلة .

على أن تترك كل منها جماعات خلفية لتعطيل العدو حتى ظهر ٢ نوفمبر .

ولم يكن فى امكاننا أن نقدر لاتمام الانسحاب أقل من هذه المدة .. بل لقد كانت معجزة أن يتم الانسحاب فى مثل هذه المدة .

وكنا فى سباق مع الساعات .. بل مع الثوانى !

وكانت تلك الفترة ، مساء ٣١ أكتوبر مع أول نوفمبر ، من أخطر الفترات فى تاريخنا ..

وحين صدرت أوامر الانسحاب الى قوات رفح كان العدو قد بدأ .

هجوما مركزا عليها ..

كان لا بد أن تبدأ قواتنا فى رفح بالانسحاب ..

واتصل قائد رفح بقيادته يقول :

« انه يستطيع أن يقاوم هجوم العـــدو ويحتفظ بمواقعه ، أما الانسحاب تحت ضغط العدو فسيكون أمرا صعبا للغاية » .

وتلقى قائد رفح بأن عليه الانسحاب قبل أول ضوء ، وان عملية انسحابه متصلة بخطة كبيرة ..

وفى نفس الوقت الذى كانت رفح تنسحب فيه ، كانت القوة الرئيسية المتجمعة فى منطقة الحشد فى بير روض سالم قد أعادت نصف قواتها فى اتجاه الغرب الى قناة السويس ، ومع ان أضواء الصباح أدركت هذه القوة قبل عبور القناة ، وبالتالى أدركتها طائرات العدو البريطانى ــ الفرنسي ــ وراحت تهاجمها الا أن انسحابها تم بنجاح ولكنها تكبدت خسائر معظمها فى العربات نتيجة الهجوم الجوى البريطانى الفرنسي .

ثم عاد العدو الى تركيز هجومه على ابو عجيلة الذى كان قد فشل مرتين فى الاستيلاء عليها من الأمام ولكنه الآن غير خططه وبدأ فى ليلة ٣١ أكتوبر وأول نوفمبر يهاجمها مرة ثالثة .

وفى هذه المرة كان الهجوم من الأمام والخلف ..

حرك العدو بعض قواته حول أبو عجيلة وبدأ هجومه من الخلف بالاضافة الى الهجوم الأمامى ..

واصطدمت القوات المهاجمة من الخلف بقوة منفصـــلة قوامها سرية مشاة عند سد الروافعة .

واستطاعت هذه السرية أن توقف تقدم العدو ــ لقــد كانت

مفاجأة للقوات المهاجمة حولت العدو عن غرضه فاستدار اليها يهاجمها .

ولقد تكبدت هذه السرية خسائر كبيرة . ولكنها منعت العدو من تحقيق غرضه ..

ولم يستطع أن يكمل عمليته الأصلية بالهجوم على أبو عجيلة ..

أما الهجوم الأمامى الذى بدأ فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل فقد استطاع أن ينجح فى الاستيلاء على جزء من المواقع .

ومع ذلك — وبرغم ذلك ففى أول ضوء يوم الخميس قامت قوات أبو عجيلة بهجوم مضاد استعادت فيه المواقع من الاسرائيليين بعد أن تركوا فى أرض المعركة ٧٠ عربة مصفحة نصف جنزير .

وأكثر من ذلك استمرت قوات أبو عجيلة فى التقدم الى منطقة تجمع العدو واستطاعت أن تحتل هذه المنطقة .

وهكذا فى صباح الخميس ١ نوفمبر بعد كل هذه العمليات عاد الموقف كما كان يوم ٢٩ اكتوبر ، وزاد عليه انه كان فى أرض المعركة ٤٠ دبابة اسرائيلية و ٧٠ عربة نصف جنزير .

ووصلت طائرات العدو ..

وبدات بضرب الدبابات والعربات التى تركت فى أرض المعركة حتى لا تقع فى يد قواتنا ..

وبعد أن انتهت من هذا الواجب بدات فى ضرب مواقع ابو عجيلة مرة اخرى ..

وجاء يوم أول نوفمبر ..

وكان الطيران المصرى هو الطليعة للمرة الثالثة ..

ففى نفس الوقت الذى كان العدو البريطانى الفرنسى ، يغير فيه

علينا ، وعلى مطاراتنا كلها ، كانت قاذفات قنابلنا قد قامت بعشرين غارة ثانية على مطارات اسرائيل ..

وكانت مقاتلات العدو تحاول عرقلة انسحاب قواتنا الرئيسية .

أما النشاط الأرضي فقد كان كله مركزا ــ مرة اخرى ــ حول أبو عجيلة ..

واخطر قائد ابو عجيلة بأن عليه أن يحاول الانسحاب بدوره هو الآخر ، بعد أن ينتهي دوره في ستر الانسحاب .

ورد قائد ابو عجيلة بأن العدو يحاصر مواقعه من كل ناحية ، ولكن مواقعه كلها متماسكة ..

ومع مجيء الظلام اتصل قائد أبو عجيلة بقيادته يقول :

« انه سيأمر بعض قواته أن تتسلل خارجة من مواقعها حاملة اسلحتها الخفيفة حتى تنضم الى قوة العريش وتنسحب معها ، انه سيدمر كل ما لديه من سلاح ثقيل حتى لا يقع في يد العدو » .

ونفذ قائد أبو عجيلة ما قاله فعلا ..

وأخذت قواته تتسلل فردا فردا من خلال مواقع العدو الذى كان يحيط بها من كل ناحية ..

ولم يبق في أبو عجيلة غير قوة مؤخرة كان يتعين عليها أن تقاتل طوال يوم ٢ نوفمبر ثم تنسحب بالليل ، بعد أن تكون عملية الانسحاب الكبيرة كلها قد نفذت فعلا .

أما قوة العريش فقد استطاعت أن تنسحب قبل صباح ٢ نوفمبر رغم تعرضها لغارات جوية مستمرة دمرت عددا كبيرا من عرباتها ..

ثم جاء يوم ٢ نوفمبر .

آخر يوم فى خطة الانسحاب .

كان نشاط العدو الجوى الذى أقصده هو العدو الاسرائيلى .

وانما كان العدو فى سيناء ذلك اليوم هو العدو البريطانى الذى راحت طائراته فى هجمات مغيظة على الانسحاب الذى أفسد المؤامرة ــ تحاول الحاق أكبر قدر من الخسائر بالنصف الثانى من القوة الرئيسية العائدة من مركز الحشد فى بير روض سالم .

وكانت اكبر خسائرنا فى العربات ، فقد كانت طلقات المدافع الرشاشة من طائرات العدو تنفذ اليها وتعطل سيرها .

اما فى ابى عجيلة فقد كانت قوة حماية المؤخرة ما زالت تقاوم ولم يكن العدو قد كشف بعد تسلل جزء كبير من قوة أبو عجيلة .

وقال قائدها انه سينقل الجرحى أولا الى الغردقة بقوارب تعبر البحر الأحمر عند مدخل خليج السويس .

وقال القائد أيضا ان انسحاب قواته قد يكون متعذرا وأنه لهذا يؤثر الدفاع عن موقعه .

وخرجت القوارب تحمل الجرحى فعلا ..

وكانت هناك سفينة تدريب صغيرة هى السفينة دمياط ، والتقت هذه السفينة الصغيرة بثلاث مدرعات كبيرة من مدرعات الأسطول البريطانى تتقدمها المدرعة نيوفوندلاند ، واذا المدرعات الثلاث تركز نيرانها على سفينة التدريب الصغيرة .

وهكذا قصد الأسطول البريطانى من البحر شرم الشيخ .

بينما تقدم اللواء الاسرائيلى التاسع الى مهاجمتها من الأرض .

وفى الوقت نفسه كان فوقها تركيز كبير بالطيران المعادى خصوصا من طيران فرنسا ...

وفى يوم ٦ نوفمبر .. بعد أسبوع كامل استطاع العدو احتلال شرم الشيخ .

واعود الى عملية الانسحاب مرة أخرى ، لقد شعرت على الفور ساعة أخطرت أن عملية الانسحاب قد تمت أن مصر كسبت المعركة ، حين أحبطت خطة العدو ..

كانت خطة العدو هى تدمير قواتنا المسلحة كلها تدميرا كاملا ، ومن ثم يصبح من السهل بعدها سحق مصر .

وكانت مناورة العدو باستعمال اسرائيل فى مؤامراته ان يستدرج قواتنا المسلحة الى العراء فى سيناء ليعزلها ويقضى عليها .

ولو أن قرار الانسحاب كان قد تأخر أربعا وعشرين ساعة فقط لكان الأمر كله الآن قد انتهى ..

ولقد خسرنا خلال عملية الانسحاب ..

خسرنا مثلا ثلاثين دبابة من طراز ت ٣٤ التشيكى نتيجة للضرب البريطانى من الجو ، ولكنى لا أقول اننا خسرنا هذه الدبابات .

فان حسابى يختلف .

انا اقول اننا كسبنا ١٧٠ دبابة ..

لقد كان لنا فى منطقة التجميع عند بير روض سالم ٢٠٠ دبابة .

ولو كان الانسحاب تأخر لكنا خسرناها حتى آخرها ، ولهذا فانا أقول اننا كسبنا ١٧٠ دبابة ..

ولقد كان سهلا علينا على اى حال أن نستعيض عن الثلاثين دبابة التى فقدناها بثلاثين اخرى من نفس الطراز ..

والأمر كذلك فى العربات المدرعة ..

لقد خسرنا منها خمسين ..

ولكنى أقول اننا كسبنا مائتين وخمسين ..

فقد كان لنا هناك ثلاثمائة ، لو كان الانسحاب تأخر لضاعت كلها ..

ولقد خسرنا أورطة دبابات الشيرمان التى كانت فى العريش لانها لم تستطع تكملة الانسحاب ولكنا كسبنا دباباتنا من طراز ستالين ودباباتنا من طراز سنتريون ودباباتنا من طراز AIIIX وهذه كلها هى الأعمدة الضخمة التى تستند عليها قواتنا المدرعة ، فقد كسبناها كلها ، ذلك أن هذه المدرعات لم تكن قد عبرت القناة الى الشرق وكانت على أى حال فى طريقها الى هناك عندما صدر قرار الانسحاب .. فلما صدر وقفت كلها مكانها ونجت كل واحدة منها .

اما ما فقدناه من العربات فقد عوضناه جميعه من مخازن الجيش البريطانى فى قاعدة القناة .

وكان فى مخازن الجيش البريطانى فى القاعدة الفا عربة منها ، اخذناها جميعا ..

بقى ان كل ما فقدناه لم يكسبه العدو ..

الدبابات التى خسرناها لم يلحقها العدو الا وهى محطمة لا تنفع للقتال ..

والعتاد الذى وجده العدو فى مواقع أبو عجيلة تم نسفه كله ، غير سبعة مدافع من طراز ٢٥ رطلا ، وجدها العدو سليمة ، وبحالة تسمح له باستخدامها ، تبقى العربات سواء ما كان منها مدرعا أو ما كان خفيفا ، وقد كان ما خسرناه منها قرب الضفة الشرقية من القناة عندما اشتد تركيز الضرب من الطائرات على قواتنا المنسحبة عبر القناة ..

هذه هى كل عمليات سيناء ..

لم تكن هناك الا معركة حقيقية واحدة هى معركة أبو عجيلة ، وكان القصد منها تغطية عملية الانسحاب كلها .

ولقد تمت عملية الانسحاب ، واقول وأنا واثق مما اقوله ، أن هذه العملية تعتبر معجزة فى التحركات فى الظروف التى تمت فيها ، فقد كان سلاحنا الجوى قد خرج من المعركة صباح يوم ١ نوفمبر وكانت قواتنـــا تنسحب تحت ضغط ســلاح الطيران البريطانى والفرنسى والاسرائيلى .

أما بالنسبة لموقع أبو عجيلة فان العدو لم يستطع التغلب على المقاومة فيه الا بعد أن كان الموقع قد أدى الغرض من مقاومته ، ثم بعد أن كانت القوة الأساسية فى الموقع قد تسللت منه مشيا على الأقدام عبر خطوط العدو وكان آخــر من وصــل منهم تراجع الأميرالاى سعد متولى قائد قوة أبو عجيلة .

لقد اثبتت التجربة العملية أن قوات اسرائيل الرئيسية عجزت امام أبو عجيلة من يوم ٣٠ اكتوبر الى يوم ٢ نوفمبر ولم تدخل الموقع الا بعد أن تم انسحاب القوات التى كانت تحتل أبو عجيلة .

وعند غروب شمس ٢ نوفمبر اعلنت اسرائيل انها استطاعت الاستيلاء على أبو عجيلة .

وهناك سؤال : لماذا لم تقم اسرائيل وحدها بتنفيذ المؤامرة ، ولماذا اشتركت بريطانيا وفرنسا معها ؟

لو كانت اسرائيل تستطيع ذلك وحدها لكانت بريطانيا وفرنسا ، تركتا لها وحدها مهمة الحرب ضد مصر وقدمتا لها ما تحتاج اليه من مساعدات من غير ضجة ومن غير أن يشعر أحد .

وكانت المعركة يومها تبدو أمام العالم ، وكأنها مصر واسرائيل ، وليست مصر وحدها ضد بريطانيا وفرنسا واسرائيل ..

ولقد اعطتنا التجربة الجديدة معلومات عن جيش اسرائيل أزالت من خيال الكثيرين الأسطورة الخرافية التى حاولت اسرائيل على مدى السنوات السبع الماضية أن تبثها فى القلوب وفى العقول .

ان اسرائيل لم تستطع ان تتقدم امام قواتنا الا عندما كانت الأوامر قد صدرت الى هذه القوات بالانسحاب بعد تدخل بريطانيا وفرنسا .

بل ان اللواء ٢٠٢ الاسرائيلى لم يستطع ان يتصل طوال يوم ٣٠ بكتيبة المظلات التى أسقطت فى سور الحيطان رغم عدم وجود اية مقاومة ارضية ولكنه اوقف بفعل الطائرات المصرية التى كبدته خسائر كبيرة ولم يستطع ان يصل تمد قبل ليل ٣٠ نوفمبر .

وكذلك لم تستطع اسرائيل احتلال اى بلدة من البلدان التى احتلتها كغزة ورفح والعريش ، الا يوم ٢ نوفمبر وبعد أن كانت عملية الانسحاب من سيناء كلها قد انتهت وتمت بنجاح .. واعتقد ان الدنيا كلها تعلم ان خطة الانسحاب لم تكن بسبب اسرائيل .

بقى ان أقدم دليلا صغيرا ماديا ، هو دفتر عمليات الكولونيل آساف سمحونى الذى قاد عمليات سيناء الذى وجدت أوراقه بجانب جثته بعد أن أسقطت المدفعية الأردنية طائرته وهو عائد الى تل ابيب بعد انتهاء العمليات .

لقد تمت ترجمة المذكرات العبرية التى خطها « سمحونى » بيده قبل أن يواجه مصرعه .

لقد كتب عن عمليات الطريق الجنوبى التى قام بها اللواء ٢٠٢ يقول ما نصه نقلا عن العبرية :

● اللواء يتقدم الى تمد ونخل .. اللواء ــ ٢٠٢ يطلب طائرات لاجلاء الجرحى ...

● القوات معرضة لضرب شديد من الجو ».

● نشاط العدو مستمر طول اليوم ولم نستطع نقل الجرحى ».

وكذلك كتب سمحونى بيده عن عمليات المجموعة ٣٨ التى تولت الهجوم على ابو عجيلة يقول ما نصه نقلا عن العبرية :

● اللواء السابع المدرع يتقدم تجاه أبو عجيلة ».

● بعد ان احتل ابو عجيلة هدفنا سيكون الحسنة ».

● اللواء السابع المدرع جنوب ابو عجيلة ».

هذه هى ملاحظاتى عن العملية :

١ ـ لم تكن هناك أوامر ثابتة للعمليات .

٢ ـ لم يكن هناك اى تنسيق من الرئيس الأعلى ».

٣ ـ غرفة العمليات لم تكن تخدم الفروع المختلفة .

٤ ـ لم يكن القائد ولا أركان حربه فى القيادة فى بعض الاوقات ».

٥ ـ لم تكن هناك اتصالات مستمرة مع الوحدات ولم تكن هناك تقارير من القواد الكبار ».

٦ ـ الأوامر كانت تصدر من القائد ولكن فرع العمليات لم يكن يتولى تنسيق النشـــاط .

٧ ـ ضابط فرع العمليات لم يقم بادارة العمليات ».

٨ ـ كل الضباط فى فرع العمليات هجروا أعمالهم ولم تكن لهم مهمة الا انهم اصبحوا مجرد ضباط اتصال .

٩ ـ غرفة ضابط العمليات الحربية تأخرت فى العمل ويجب ان تكون ملاصقة لغرفة الحرب ».

١٠ ـ لم تكن هناك فائدة جدية من فرع المخابرات ».

١١ ــ جرت محاولة للسيطرة على الوحدات بواسطة جهاز اتصال ، نجح ، ولكنه لم يواصل ، وعطب .

١٢ ــ .. ..

ملاحظة ــ لم يكن فى الوحدات اى نوع من أنواع الترفيه ..

هذا هو وصف قائد القوات الاسرائيلية فى سيناء .
ان صوته من وراء القبر يتكلم ويروى حقيقة جيش اسرائيل .
بقيت ملاحظة تبين الى اى حد نجحت خطة الانسحاب فى افساد المؤامرة ..

لقد كان هدف المجموعة ٣٨ طبقا لاوراق سمحونى ان تصل الاسماعيلية وتلتقى هناك بالقوات الفرنسية البريطانية .

لقد فشل هذا كله وتبدد كما يتبدد الدخان .

لقد كان الله معنا .. أنار لنا الطريق وأعاننا على الأعداء ..

* * *

كانت حرب السويس هى بداية التحول فى تاريخ نضال الشعب المصرى وكانت الجرس الذى قرع منهى عصر الاستعمار ، ثم انها كانت بداية الخطوات الثورية لتحرير ارادة الانسان المصرى الذى انتزع حريته السياسية ، وعليه أن يتأكد له نصيب عادل فى ثروة بلاده ، وقد اورد جمال عبد الناصر نتائج حرب السويس فى ميثاق العمل الوطنى فقال :

● لقد رفع شعبنا حتى فى أحلك الظروف شعار السلام ــ لا الاستسلام ــ ايماءة واضحة الى انه يقبل التعاون الدولى ، ولكنه يقاوم السيطرة .

● ان الاستعمار فى معركة السويس كشف نفسه ، وكشف قواعده ، وكشف أعوانه .. ان الاستعمار انقض على شعب مصر بالسلاح ، لأن الشعب المصرى حاول أن يحقق استقلاله ، ويبنى

تقدمه من احد موارده الوطنية الذى طال استغلال الاستعمار له واحتكاره لكل عاده وقيمته .

ان الشعب المصرى باسترداد قناة السويس ضرب الاستعمار واحتكاراته فى الصميم .

واثبت صلابته بتحمله العنيد لتبعات اصراره ، الى حد قبول المعركة المسلحة فى وجه قوى زاحفة جرارة .

ان الشعب المصرى بثباته الرائع ، وبقتاله المرير ضد الغزو ، استطاع أن يهز الضمير العالمى ويحركه بصورة لم يسبق لها مثيل فى التطور الدولى .

● **ولقد كان التحول الرائع فى المعركة نقطة فاصلة فى حركات التحرير ، ان الشعب المناضل الذى كان يواجه الطغاه الكبار وحده ، لم يعد وحيدا ، وانما انقلب الموقف راسا على عقب نتيجة للمقاومة الوطنية الباسلة . ان الذين تجمعوا ضد شعبنا ليعزلوه وجدوا انفسهم فى عزلة عن الدنيا كلها ، بينما وقفت شعوب العالم كلها مع شعبنا تشد من أزره ، وتلوح له بأيديها تحية وتضامنا معه .**

ان الهزيمة التى منى بها الاستعمار فى حرب السويس انهت عصر المغامرات الاستعمارية المسلحة .

بفضل نضال شعبنا .

ثم ...

● ان الشعب المصرى استطاع وسط مهرجان النصر العظيم أن يدرك انه لم يحصل على الحرية فى معركة السويس ، وانما هو فى معركة السويس استخلص ارادته لكى يصنع بها الحرية ثوريا .

وكان النصر بداية العمل الحقيقى .

فالسؤال « الذى طرح نفسه تلقائيا غداة النصر العظيم فى السويس هو : لمن هذه الارادة الحرة التى استخلصها الشعب المصرى من قلب المعركة الرهيبة ؟

ان نهاية هذا العهد البغيض بالنسبة لكل شعوب العالم تحققت

وكان الرد التاريخى الذى لا رد غيره ، هو أن هذه الارادة لا يمكن أن تكون لغير الشعب ، ولا يمكن أن تعمل لغير تحقيق أهدافه .. ان الشعوب لاتستخلص ارادتها من قبضة الغاصب لكى تضعها فى متاحف التاريخ وانما تستخلص الشعوب ارادتها وتدعمها بكل طاقاتها الوطنية لتجعل منها السلطة القادرة على تحقيق مطالبها .

وبدأت خطوات عبد الناصر نحو التحول الاجتماعى بالتمصير وانشاء المؤسسة الاقتصادية .. واخيرا صدرت قرارات التأميم ، والقوانين الاشتراكية التى تحرر ارادة الملايين وتجعل لهم نصيبهم العادل فى ثروة بلادهم .

● حكاية انسان ●

كيف.. عاش عبد الناصر ؟

التعبير العربى لرئيس الجمهورية (١) هو الرئيس ، اى رئيس الجمهورية ، وهو اعلى لقب فى الدولة . ولكن فى اللغة العربية الدارجة فان هذه الكلمة باختلاف طفيف فى النطق تصبح « الريس » ويمكن لاى زوجة مصرية أن تسمى زوجها « الريس » فى غيبته وفى حضوره ...

وعندما تتحدث عن جمال عبد الناصر زوجته السيدة تحية امام الغرباء فانها تشير اليه باسم السيد الرئيس ، ولكن امام بعض الاصدقاء الحميمين الآخرين لا تتحدث عنه باسم جمال ولكن باسم الريس فقط .

ويعيش الرئيس جمال عبد الناصر هو واسرته فى منزل بمنشية البكرى لا تحيط به اية مظاهر تقريبا . وعندهم جناينى ومربية وطباخ وخادم مائدة للطابق الأعلى ، وهذا شىء عادى بالنسبة لعائلة متوسطة بها سبعة أفراد فى مصر . وهناك خادمان آخران تدفع اجرهما الحكومة يخدمان فى الحجرات التى يستعملها الرئيس فى المهام الرسمية ، وعندما يسافر ناصر فى الأعمال الحكومية فانه يركب احدى الكاديلاك السوداوين الحكوميتين الموضوعتين تحت

---

(١) المصدر كتاب « الرئيس » تلخيص وترجمة هيئة الاستعلامات وهو كتاب امريكى .

تصرفه ، وهو لا يستعملهما اطلاقا فى الرحلات الشخصية . وكانت سيارته الأوستين السوداء قد أصابها العطب بعد الثورة بعامين ، وفى ذلك الوقت اشترى سيارة فورد فى لون الفستق .

وعبد الناصر يتحاشى أماكن اللهو العامة . وهناك فوق فندق سميراميس « روف جاردن » يحوى اشجار النخيل المزروعة فى الاصص وصناديق بها ورد وتسمع فيه موسيقى هادئة وقد يرى الجالس منظرا بهيجا للنيل . ويعتبر هذا المكان من اجمل الأماكن فى القاهرة للاسترخاء فى ليلة من ليالى الصيف الحارة ، وكان ركن منه محجوزا باستمرار للملك السابق . وبعد أن عزل فاروق بعدة سنوات أقيم حفل استقبال للأسقف مكاريوس هناك . ولما كان ناصر حريصا على اظهار احترامه لزعيم القومية القبرصية فانه تغاضى عن قاعدته فى الا يتردد على مثل هـذه الأماكن مهما كانت هذه الظروف وقبل الدعوة . وعند وصوله وبينما كان يخطو خارجا من المصعد ويسير الى « الروف جاردن » صاح :

« لماذا لم يقل لى اى فرد كيف ان الجو جميل هكذا هنا » ؟ .

فقد كان المنظر بديعا ، وعبد الناصر ليس لديه وقت للترويح أو الفسحة او الخروج بعيدا عن منزله ..

وناصر لا يلين فى اصراره على أن يكون كبار موظفى الحكومة امناء وذوى ضمائر حية . فيمكنهم أن يضعوا فى مكاتبهم وفى منازلهم ما يشاءون من التليفونات والأجراس على نفقتهم وكذلك يمكن أن تكون لديهم أجهزة تكييف الهواء والسيارات الكاديلاك التى يركبونها الى مقر أعمالهم ، وكذلك يمكنهم السفر الى الخارج فى رحلات رسمية ولكن يجب أن تكون حساباتهم فى البنوك مفتوحة للتفتيش ويجب ان يتجنبوا التعرض للشك من اشتراكهم فى اى نوع من الفساد الذى جعل شعب مصر يشعر بالمرارة من ساسة ما قبل

الثـورة ، وكثيرا ما استغنى عن كبار الموظفين الذين نقضوا هذه القواعد .

وقد تم توسيع منزله فى منشية البكرى مرتين وذلك لأن عنده خمسة اولاد ولأن المنزل اصبح المكان الذى يقوم فيه بكل أعماله ويستقبل فيه زواره الرسميين وبعد هذه التوسعة التى قام بها الخبراء تجد أن المنزل ما زال لا يزيد فى مظهره عن منزل فى احدى الضواحى يقيم فيه نائب رئيس بنك صغير فى أى مكان فى أمريكا .

ويقوم بحراسة المنزل ليلا ونهارا ستة من الجنود فى ملابس رسمية ، ويوجد فى الداخل مساعدان فى ملابس مدنية وهما يقومان بالخدمة اثناء كل ساعات عمله . وهناك أيضا عدد من الحراس فى ملابس مدنية لايظهرون الا نادرا .

ويدخل الزائر من البوابة فى فناء صغير . ويوجد فى ناحية اليسـار ملعب تنس خاص والى اليمين يوجد مبنى جديد من الحجر يحوى ارشيف ناصر ومكتبة وتزين واجهة المنزل الرئيسى ثلثمائة اصيص من النباتات المزهرة فى ثلاثة صفوف على أرتفاعات مختلفة ، وتغير هذه الاصص بمجرد أن يقف ازدهار الورد .

وذاعت القصص بأن المنزل يسبح فى ضوء فياض ، كوقاية لاغتيال محتمل ولكن هذا ليس صحيحا ، وكل ما هناك هو ستة اعمدة من الخرسانة موضوع فوق كل منها ضوء للزينة . وتستمر هذه الأنوار مضاءة طول بقاء الضيوف ويستمر ذلك عادة حتى الثالثة أو الرابعة صباحا .

وتوجد خلف المنزل مساحة خضراء واسعة بها صفوف من الاشجار وفى ركن بعيد تحت أكبر شجرة توجد عدة كراسى ومنضدة وقاعدة من الحجر ، وفى ذلك المكان غالبـا ما يعمـل ناصر فى أيام

الصيف المعتدلة والى جانبه تليفون منفصل يلحق بوصلة فى القاعدة الحجرية .

وعند دخول الزائر الأجنبى يأخذ أحد الخدم الحكوميين قبعته أثناء سيره فى الصالة ويقتاده الى صالون يبلغ كل من طوله وعرضه نحو عشرين قدما وتوجد فى جانب بعيد من الحجرة مدفاة من الطوب الأحمر والرخام الأسود . ويوجد على رف المدفاة ثمان صور عليها توقيعات أصحابها وموضوعة فى براويز فضية ثقيلة . وهذه الصور لرؤساء سابقين وحاليين بينهم شكرى القوتلى وسوكارنو ونهرو ، وهيلاسلاسى ، وتيتو ، وشواين لاى ، وروموﻟﻮ وراجندا براسدا والى اليمين على « كومودينو » صغير فوقه رخامة وضع برواز به صورة لنكروما رئيس وزراء غانا السابق . وهى كبيرة جدا ولا تصلح للتثبيت فوق رف المدفاة ، وهؤلاء الرجال التسعة هم افضل الشخصيات السياسية فى العالم الخارجى بالنسبة لعبد الناصر . وتتدلى من الحائط فوق المدفاة صورة زيتية اطوالها اربعة وخمسة اقدام لطفلين من الفلاحين ومهداة اليه من الحكومة الأسبانية . ويتدلى من الحائط المقابل رسم تقليدى لمجموعة من الكتاكيت .

والأثاث مرتب بدقة هندسية . فيوجد أمام المدفاة كرسيان كبيران مزخرفان كل فى مواجهة الآخر وبينهما منضدة صغيرة للقهوة ، وفى هذا المكان يستقبل ناصر كبار الشخصيات الأجنبية من زواره فى حديثهم الرسمى وفى الجانب المقابل من الحجرة يوجد طقم من الأثاث المذهب تقليد طراز لويس الرابع عشر ، يتكون من أريكة وستة من الكراسى مغطاة بقماش من البروكار الثقيل المطرز بالورد ، وثلاث مناضد صغيرة . ومنذ ثلاث سنوات ثارت ثائرة

الرئيس من جراء مقالة فى مجلة امريكية قالت ان هذا الأثاث المذهب مأخوذ من احد قصور فاروق لأن هذا غير صحيح على الاطلاق .

بل ان العكس هو الصحيح تماما فهو كرئيس للدولة من حقه أن يقيم فى احد القصور وان ينقل منه ما يشاء من الأثاث الى منزله الذى تملكه الحكومة ، ولكنه دفع ثمن هذا الطقم المذهب من جيبه الخاص . وتتدلى من سقف الصالون نجفة كريستال كبيرة وهى مثل الأثاث المذهب رشيقة يمكن لكل ربة بيت من الطبقة المتوسطة فى القاهرة ان تشترى لنفسها مثل هذه الأشياء ، وفرشت أرض الحجرة بسجادتين شرقيتين كبيرتين وسجادة صلاة ذات لون أزرق واحمر امام المدفاة . أما الجدران فلونها رمادى فاتح والسقف ابيض . والشبابيك مغطاة بالستائر وهذا شىء عادى فى مصر حتى فى منازل البسطاء ، والمنزل كله مجهز بجهاز تدفئة وتكييف هواء عام .

وفى الصالون يستقبل الرئيس السفراء والوزراء والمراسلين الاجانب والزوار الأجانب الآخرين . ويصحب بعضهم معهم مترجميهم الخصوصيين ، ويصل كثير منهم وهو يشعر بشعور من الشك المؤدب عن مضيفهم وعن آرائه ولكن سحره يأسرهم بوجه عام وتلتقط صوره هو وضيوفه دائما امام المدفاة ، ولهذا اصبحت اللوحة الاسبانية أحد الأعمال الفنية فى العالم التى كثيرا ما تظهر فى الصور .

وتطل نافذتان من صالون ناصر على غرفة أرضها مغطاة بالحجر ، بها منضدة « بنج بونج » .

ويوجد على الأرض الخضراء دراجتان من ذوى الثلاث عجلات للأطفال مقلوبتان على جنبيهما ومتجاورتان تدلان على أن صاحبهما قد اصطدما وانقلبا منذ فترة وجيزة وتركا العجلتين وذهبا لتضميد جراحهما .

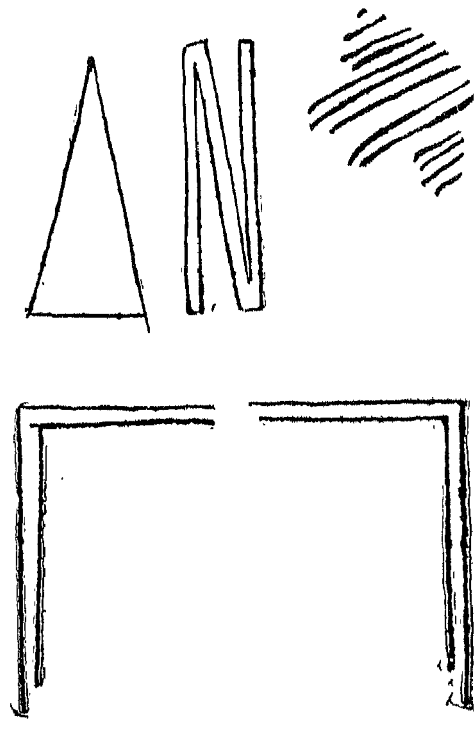
ويوجد مكتب ناصر فى الطرف الآخر من الصالة المقابل للصالون وهذه منطقة محرمة لا يسمح بدخولها للخدم او الضيوف او افراد

العائلة أو حتى أصدقائه المقربين . والحائط البعيد من الطوب الزجاجى ، وأمام الحائط مكتب طوله سبعة أقدام وعليه أكوام من الخطابات والتقارير الحكومية والمجلات والصحف وكلها فى نظام حسن الترتيب ، وعلى أحد أركان المكتب توجد كومة من المفكرات سجل فيها طوال هذه السنين انطباعاته عن الناس والأحداث والمشاكل . والى جانب المكتب توجد لوحة تحويل تليفون بها احد عشر زرارا .. ويمكنه أن يتصل بعامل التليفون او بأهم الرجال فى الدولة بأن يستدير نصف استدارة فى كرسيه ويضغط على أحد الأزرار . فاذا كانت مكاتبهم مغلقة دقت اجراس تليفوناتهم فى منازلهم وعلى مقربة من المكتب أيضا توجد اريكة طولها سبعة اقدام وآلة تملية أمريكية واقوى جهاز استقبال راديو فى مصر ومن بين الأشياء التى تزين المكتب ساعة سويسرية تبين الوقت فى أى مكان من العالم ، وصورة مصنوعة من الصدف ، وهى التى رسم عنها جيرو أحد اغلفة مجلة تايم فى عام ١٩٥٥ . والى جانب المكتب توجد اريكة كبيرة وهو يجلس فى هذا المكان عندما يجتمع بزملائه المقربين . وعلى مقربة منه توجد ثلاثة ازرار ، أحدها لاستدعاء الخادم والثانى لاستدعاء سكرتيره اما الثالث فلا يعرف الغرض منه الا من أشخاص قلائل الى جانب ناصر نفسه .»

وكانت حجرات نوم العائلة فى الأصل خلف الصالة والمكتب .» وعندما أضيف طابق ثان تحولت الى مكتبة وصالون للسيدات تستقبل فيه السيدة زوجته صديقاتها وحجرة طعام . ويوجد فى حجرة نوم عبد الناصر العلوية تليفونات وجهاز راديو قوى .»

وهو يستيقظ فى الساعة السابعة صباحا ، فيغتسل ويحلق ذقنه ويتناول افطاره وهو عبارة عن الشاى والجبنة البيضاء ، وسلطانية من اللبن وطبق من الفول المدمس وهو يستمر وقتا طويلا أثناء وجبة الافطار لأن هذا هو الوقت الذى يقرأ فيه الثلاث جرائد الصباحية التى تصدر فى القاهرة لكى يعرف ما وقع من أمور .

خطوات التـالية ما بين حجرة الطعـام والمكتب حيث
ساعات أخرى يقرأ تقـارير وزرائه وبرقيـات سفرائه
خر يرى سكرتيره الخاص انه يجب أن يعرض عليـه .
اثنـاء حديثه فى التـليفون أن يرسم على النتيجة
، واذا فحصت اوراق النتيجة فى السـنوات الأربع
دت أن رسوما معينة تتكرر مرة بعد أخرى :



لخطوط التى يرسمها جمـال عبد الناصر عندما كان
يتكلم فى التليفون .. بخط يده

وفى فترة الصباح تكثر تنقلات مساعديه بين المكتب ومبنى السكرتيرية المكون من طابقين على الجانب الآخر من الطريق ، وهذا هو مقر سكرتيريه الخصوصيين ويعمل كل منهما مدة عشر ساعات وعلى ذلك فهناك ساعات قليلة قبل طلوع النهار لا يكون أحد منهم موجودا خلالها . ويساعدهم اربعة من المختزلين كلهم ذكور ».

وتصل الخطابات العادية من الخارج الى رئاسة الجمهورية ويصل من هذه الخطابات الفان أو ثلاثة آلاف خطاب يوميا معنونة باسم ناصر نفســـه ، نصفها من الولايات المتحدة وكثير منها من الدول الشيوعية ويجيب على هذه الخطابات جهاز مكون من ٦٢ رجلا وامراتين تقدران على قراءة وكتابة اى لغة فى العالم تقريبا . ويرسل هذا الجهاز بالبريد أيضا نسخا من قصة حياة ناصر ونسخا مجانية من كتاب فلسفة الثورة وطوابع بريد لهواة جمع الطوابع ويرسل حتى تماثيل صغيرة لمن يطلبها من هواة جمع التماثيل ». والورق المستعمل فى الخطابات مختوم على أحد الأركان بختم الدولة ويحمل فى اعلاه فى حروف عربية عبارة ((**بسم الله الرحمن الرحيم**))

ويختار المشرف من بين الرسائل الهامة لعرضها عليــه ، كما يعرض عليه تلخيصا لكل الرسائل التى تصــل . وفى عام ١٩٥٩ كتبت له احدى المدرسات فى مصر العليا عن معركة تحتدم بينها وبين رئيستها تقول :

« انها ترهقنى فى معظم الوقت لانها تريد أن تتزوج ، ولى قريب رجل غير متزوج هو الآخر ، وقد طلبت منى الرئيسة أن أهيىء لها الأمر لكى يتزوجها . وقد طلبت منه ذلك ولكنه لم يهتم . وبسبب فشلى هذا نقلت الفصل الذى أدرس فيه الى ممر ضيق ، وهذا مهين جدا لى . لذا فاننى اكتب اليك أيها الرئيس لكى تخف لنجدتى قبل أن يصيبنى الجنون » .

وعبد الناصر لا يملى خطاباته أبدا ولكنه يعطى سكرتيره فكرة عامة شفوية عما يريد قوله . ثم يكتبها السكرتير بعد ذلك فى لهجة المخاطب ويعرضها عليه لتعديلها كما يريد أو اقرارها ».

وفى الظهر عند الغداء . فى الساعة الثانية والنصف تقريبا وهى الساعة التى تستطيع السيدة زوجته أن تجلس فيها معه ، فالتليفونات من الخارج ممنوعة والمنزل خال الا من الخدم وتتكون وجبة الغداء من الخضر والجبن ونادرا ما يوجد اللحم . واذا تلكآ فى غذائهما مدة طويلة فان الأولاد يجيئون من المدرسة الى المنزل جريا ويحيون والدهم قبل خروجهم للعب .

وبعد الغداء يقرأ ناصر كومة من الجرائد اليومية التى تأتى من مدن العالم العربى والخارجى . وربما يستمر ذلك ساعتين ، ثم ينام بعدها حتى الخامسة مساء ، وعندها يبدأ عمله الحقيقى . فهو فى خلال الثمانى ــ أو التسع ساعات التالية يعقد الاجتماع تلو الآخر مع وزرائه ومع الدبلوماسيين الذين يعملون فى القاهرة

واحسن خطب عبد الناصر هى التى يلقيها ارتجالا ، ولكنه يعرف أن كل كلمة من الخطب التى يلقيها يتولاها اعداؤه السياسيون فى الداخل والخارج بالقراءة والتمحيص ، ولذا فهو يتكلم عادة من اصل مكتوب .

يتكدس مئات الآلاف من الرجال والنساء فى ميدان شعبى ويقفون ساعات ثلاث تحت الشمس الحارقة يستمعون اليه . والحقيقة هى أنه كمصرى ، أى كواحد منهم ، ويقدر على ربط كثير من الكلمات بعضها مع بعض ، والناس ينظرون اكثر مما يستمعون وهو المرآة التى يرون فيها انعكاس صورتهم انعكاس انفسهم فى الوضع الذى يتمنونه لانفسهم وكثير منهم تئن اجسامهم من التعب ، أما هو فمرفوع القامة قوى الجسم ، عيناه لامعتان وسليمتان ، وجيه وحسن الملبس مثل معظم الاجانب الذين يهبطون من الطائرات وهم لا يتمتعون بأى نفوذ ، أما الرئيس فيمكنه ان يدخل الرعب على الاوغاد الاجانب كما ان الملوك ورؤساء الوزراء يقطعون آلاف الاميال ليروه وهو رمز لمصر الحديثة التى لم تعد تثنى ركبتيها أمام أى فرد .

ولم يفقد ناصر طموحه الادبى الذى كان يشعر به عندما كان

غلاما وفى جلسة مع احد المؤلفين قال له : « اننى احسدك اكثر مما تتصور ، اننى املك خمسة وعشرين نوتة مذكرات مليئة بالانطباعات عما قراته وسمعته ورايته ولكنى مشغول جدا لدرجة لا تمكننى من الاستفادة من كل هذه المواد ، واود لو اننى حظيت بشهر من الوقت ليس أمامى فيه عمل الا ان اكتب ، واحيانا يخضع امام ميوله الأدبية بطريقة غريبة ، وذات مرة ارسلت له وزارة الخارجية مذكرة روتينية فى خمسة عشر سطرا وعندما أعيدت المذكرة كانت تحوى تعليقا مكتوبا بخط يده فى اسفل السطور الخمسة عشر وعلى هامش الورقة وفى ظهرها فى أسلوب عربى أدبى سليم .

وطلب منه احد الامريكيين ذات مرة ان يذكر اسماء أعظم شخصيات فى كل العصور ، فتردد ناصر ثم أجاب : ((اننى انظر الى **لنكولن على انه رجل عظيم وكذلك جورج واشنطن الذى قرأت عنه أخيرا فقط ، وقرأت عن لينين واننى اعتبره رجلا عظيما أيضا ، وكذلك غاندى ، وكمال اتاتورك الذى جاهد ضد البريطانيين كان شخصية هامة حقا ، لقد أثر فى اتاتورك ولكنه شنق عددا كبيرا جدا من اصدقائه وبالطبع لا بد ان تضم القائمة المسيح ومحمد))**

ولو انه كان يملى هذه القائمة على اى شخص آخر غير الشخص الامريكى لاختلفت هذه الاسماء عما هى ، لانه يتمتع بالرغبة الموجودة عند كثير من المصريين وهى الرغبة فى اعطاء السائل الاجابة التى يبدو أن هذا السائل يريدها .

وهو يلتقط من كل الأفلام التى يشاهدها والقراءات الدورية الكثيرة جدا التى يقرؤها والتشكيلية من الناس الذين يراهم . يلتقط قدرا عظيما من المعلومات ويقدر على تصنيفها وفهرستها وحفظها ـ بطريقة الرجل العسكرى الدقيق ، والمنظم ..

وهو يهتم اهتماما ضئيلا بمناقشة المسائل الفنية او العقلية البحتة مع انه اجاب على سؤال ذات مرة عن الدين بأن قال : **((لقد رفضت فى شبابى أن أكون مسلما لمجرد أن والدى كان مسلما . وعندما كنت صغيرا حاولت أن أسال الأسئلة وفى عام**

١٩٤٧ شعرت انني عرفت كل الاجابات . انني لا اعتقد فى المظاهر الخارجية للدين ولكنني اعتقد فى شىء عميق فى قلبى . وانني اجد استحالة فى تقرير الصحة او الخطأ دون الرجوع الى الدين . ولكنني اعتقد ان كل الديانات واحدة فى جوهرها » .

وهذه المعانى نفسها هى التى اوردها فى ميثاق العمل الوطنى حول الدين .

وفى الساعة التاسعة من مساء كل يوم يصل رسول من القاهرة يحمل النسخة الأولى من جريدة يحررها ويصدرها جهاز من الكتاب والمحررين والباحثين فى مصلحة الاستعلامات ، لناصر ومساعديه الكبار . يطبع منها عدد محدود من النسخ ثم توزع ومكتوبا على كل نسخة بأحرف كبيرة عبارة « سرى جدا » .

ويقرأ الوزراء وكبار الموظفين هذه النشرة لأنها تحتوى على كل الهجمات الموجهة ضد نظام الحكم من اى مكان فى العالم . فى الاربع والعشرين ساعة السالفة . وتخصص الثلاث صفحات الأولى من العدد العادى لمقتطفات عن مصر من المقالات والافتتاحيات المنشورة فى صحف العالم ، وتخصص الصفحة الرابعة دائما للأنباء والتعليقات الخاصة باسرائيل ، والخامسة للسودان ، والسادسة لآسيا ، والسابعة للحرب الباردة بين الشرق والغرب والصفحتان الثامنة والتاسعة للمخصات من أقوال الاذاعات العالمية ، اما الصفحة العاشرة فتحوى ملخصا لكتاب جديد . والى جانب هذا الملخص اليومى تعد مصلحة الاستعلامات ملخصا فى عشرين صفحة لكل كتاب ينشر بأى لغة هامة وتعتبره المصلحة هاما . ويرسل لعبد الناصر واحد على الأقل من هذه الملخصات يوميا .

وتصله كومة من وسائل الأخبار الحديثة من ماكينات المطبعة مرتين يوميا واذا وصل تقرير له أهمية خاصة بالنسبة لمصر يرسل اليه مباشرة بصرف النظر عما يفعله وعندما تصل الى مساعديه رسالة له فانهم لا يتهامسون بها بل تكتب دائما على قطعة صغيرة من الورق وتسلم اليه دون تعليق .

وبعد أن ينصرف آخر ضيف ، وبعد أن يكون قد قرأ آخر تقرير . وأجاب على كل مكالمة تليفونية فانه يذهب الى حجرة نومه ، وذراعه محمل بالجرائد والمجلات الامريكية والبريطانية والأوروبية والعربية ، ويخلع ملابسه ويدير جهاز الراديو المجاور لسريره ويقضى الساعة أو الساعتين التاليتين فى القراءة .

وهو يقول : ((**ان معظم ما فى الصحف تكرار لما أقرؤه فى الملخص ولكن أحب ان اراه فى الأصل انني اعتبر قراءة الملخص واجبة ولكن قراءة الجرائد والمجلات متعة . وهذه هى هوايتى الحقيقية . واحيانا أرى فى الجرائد أشياء لم ترد فى الملخص كقصص غير هامة ولكنها تهمنى واذا لم أقرأ الجرائد نفسها فلن اعرف شيئا عن صائد الطيور البريطانى . ان مثل هذه القصص تربطنى بالعالم . وانني استمتع ببعض المجلات ، من أجل الاعلانات واحب الصور الهزلية والصور فى بعض المجلات الأخرى .**

وينتقده بعض معارضيه فيما بينهم لانه يقرأ كثيرا جدا ... ففى بعض الأيام يقضى خمس أو ست ساعات يقلب صفحات الدوريات ، وهم يشعرون انه يمكن ان يستفيد من وقته أكثر من ذلك . كما أنه يأخذ معه الى حجرة نومه مجموعة من برقيات المراسلين الأجانب التى أرسلوها الى جرائدهم خلال اليوم ، وهو يقرؤها بدقة . وهو حماسى أكثر مما تشير التعليقات التى تذكر عن الطريقة التى يعالج بها مهامه ؟ .

ومنذ أن أصبح جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية لم يترك له منصبه الا وقتا قصيرا للرياضة والترفية . ونتيجة لذلك زاد وزنه وهو حساس من هذه الناحية . وقد سأله أحد زواره عن وزنه فأجاب : « انني ازن الآن ٨٠ كيلو » ولكنه أضاف بسرعة « ولكن تذكر أن طولى ١٨٢ سم » .

ومنذ أن استأصل الزائدة الدودية والآلام الجسمانية الوحيدة التى يعانيها هى هجمات آلام الناسور من جراء الغبار والرمال الصحراوية فى الجو . وتسبب له هذه الآلام صداعا لا يحتمل مما

يعطيه احساسا بالكآبة التى تختفى فقط عندما تنتهى آلام الناسور .

ولا يزال الشطرنج لعبته الداخلية المفضلة وقد علمه لابنتيه الكبيرتين وابنه الأكبر ، ولكنه وجد أن مشاهدة الأفلام يريح اعصابه أكثر من أى شيء آخر ، وحتى قيام الثورة ، كان يأخذ السيدة قرينته الى السينما مرة او مرتين كل اسبوع ثم كف عن ذلك اذ اشترى آلة عرض سينمائية واقام شاشة فى ملعب التنس ، واحيانا اثناء فترات الأزمة يشاهد فيلمين او ثلاثة فى سهرة واحدة لكى تبعد عنه التفكير فى مشكلته وقد سئل مرة عما اذا كان قد طبق مبدأ ناصر للحياد الايجابى على انتقاء الافلام فأجاب :

« اذا فعلت ذلك لكان على أن ارى الأفلام الرديئة والافلام الطيبة واننى لا اهتم بالأفلام الرديئة . ان ما احبه هى الأفلام الجيدة فقط . اننى لا أحب الدراما والأفلام الثقيلة .

وفى يوم الجمعة ، وهو يوم الأجازة ، لا يذهب أولاد عبد الناصر الى المدرسة ولذا يمكنهم ان يسهروا ساعتين فى ليلة الخميس لكى يشاهدوا احد الأفلام ، وجرت عادة العائلة أن يسمح لهم باختياره ولكن والدهم يقول : « ان ذوقهم لا يماثل ذوقى فهم يحبون افلاما اعنف من الأفلام التى أحبها ، وخصوصا أفلام الحرب . ولذا فبعد ان يذهبوا الى نومهم فاننى عادة أضع الفيلم الذى أريده » .

وهو يهتم كثيرا بالملابس ، وحتى أيام أن كان فى الجيش ، كان يلبس الملابس المدنية كثيرا بقدر استطاعته . ولكن سرعان مايكتشف من يعرفه انه لا يملك دولابا ممتلئا بالملابس .

« لقد جرت سياستى دائما على أن اشترى بذلة جديدة يفصلها لى ترزى بالقاهرة كل عام ولكننى اغفلت عام ١٩٥٥ فلم اشتر فيه شيئا » .

ونقطة الضعف عنده هى حبه لاقتناء اربطة الرقبة ، ولما كان معظم اصدقائه يعرفون عنه ذلك فانه يتسلم هدايا منها .

ورباط الرقبة المثالى بالنسبة له يجب أن تكون به خطوط واسعة ذات ألوان مختلفة يجب أن يكون اتجاه هذه الخطوط عندما ينظر اليها فى المرآة من الشمال الى اليمين . وهو يعطى مالا يعجبه منها لاخوته ومساعديه .

ولم يسبق له ان احصى عدد اربطة الرقبة التى يملكها ، وقد جاءته هدايا تتراوح بين طائرات يبلغ ثمنها نصف مليون جنيه وكتب موقعة بأسماء مؤلفيها ووزعها كلها ، او سلمها للدولة ولكنه يحتفظ بالهدية اذا كانت رباط رقبة مخططا فى اتجاه اليمين .
وهو لا يملك ملابس للسهرة لأنه يشعر أن مثل هذه الملابس لا تتناسب مع مصر الحديثة .

وهو يقول أن الألوان المفضلة بالنسبة له هى الأزرق والرمادى الفاتح ومجموعة الألوان التى يلبسها تؤيد قوله بأن « **الألوان فى الواقع لاتهمنى** » وأربطة الرقبة التى يملكها ذات الوان زاهية ولكن جواربه ومناديله وقمصانه وحلله لا تكون مجموعة متآلفة يظن أنها جاءت بعد تفكير فى انتقائها .

وكثيرا ما وصف نفسه بأنه « رجل يحب الأسرة » واسعد اوقاته هى التى يذهب فيها هو والسيدة قرينته والأولاد وواحد او اثنان من مساعديه الى القناطر التى تبعد عن القاهرة ثلاثة عشر ميلا أسفل النيل . وقد بنت الحكومة فى هذا المكان استراحة مكونة من ثلاثة طوابق فى أيام فاروق ، واستعملها رؤساء الوزراء عدة سنوات ويذهب اليها ناصر وأسرته لقضاء عدة ايام . ويسمح

هذا لناصر وعائلته بأن يعيشوا حياة عادية من حياة الطبقة المتوسطة . وحين يعرف ان عبد الناصر قد ذهب الى القناطر فان كل فرد يعرف انه أصبح نهبا للتعب او أن ازمة تبدو فى الأفق وهو يشك فى انها ستتطلب منه أن يبذل جهدا عصبيا فائقا وهو لذلك يستعد لها .

ومع انه يرى اولاده اقل مما يرى معظم الآباء أولادهم فانه يفخر بهم كأحسن ما يفخر اب بأبنائه — وهو يصر على أن يتعلموا الحديث بالفرنسية وقراءتها الى جانب الانجليزية والعربية وليس له طموح معين بالنسبة لأبنائه .

فهو يقول : ((**يجب أن نسمح للأولاد باختيار مهنتهم ، فاحد الأولاد يفكر الآن فى أن يكون طيارا والآخر ضابطا بالحربية**)) .

ومع ان احدا من الطفلين ليس له اهتمام بالسياسة الا ان خالد غالبا ما يدور حول المنزل متظاهرا بأنه يلقى خطابا عاما مقلدا اساليب والده الخطابية .

وقد عرفت السيدة قرينته بأنها زوجة غير معروفة لدى الشعب من بين زوجات جميع رؤساء دول العالم ، وهذا هو ما يريده لها زوجها . وفى خلال السنوات التى تلت الثورة لم تعقد مؤتمرا صحفيا ، ولم تعط صورها للجرائد ولم تحضر اى حفلة رسمية ، ولم تقابل اى زائر من زوار زوجها ، ولم تبرح الدولة وحينما تذهب لشراء حاجياتها لا يكاد اى شخص يعرفها . وينحصر نشاطها الاجتماعى فى دائرة زوجات الوزراء . ولم يسبق لها ان اعدت حفلة عشاء رسمية ، فعندما يحتفل زوجها بالملوك

والرؤساء واولياء العرش والزوار الأجانب ذوى الأهميــة فانه يفعل ذلك فى قصر القبة ، ولكن قلما تحضر السيدة تحية حتى هذه المناسبات ، ولكنها بين حين وحين تقيم حفلات عشاء غير رسمية فى منشية البكرى لأصدقاء زوجها المقربين .

ويهتم عبد الناصر بالموسيقى ، وقد بدأ شغفه بها حينما كان يعيش فى الاسكندرية مع جده وجدته ، وكان فى بيتهم جراموفون . وفى حين كان ينصت الى تسجيلاتهم عرف صوت امرأة شابة تدعى أم كلثوم التى كانت تردد اغانى مصرية بطريقة جهورية ـ حاولت السيدة تحية قرينته التى تعزف البيــانو أن تقوده بالتدريج من النغمات الاجنبية الخفيفة الى الموسيقى الكلاسيك بل أقنعته بان يبدأ بجمع التسجيلات الجديدة ولكنها لم تتمكن والآن اذا سألته من احب الملحنين بالنسبة لك لاجاب انهما رحمانينوف وشوبان ولكن أم كلثوم مازالت تغنى لمدة ثلاث ساعات كل ليلة خميس من أول الشهر فى مسرح من مسارح القاهرة وتذاع حفلتها من راديو القاهرة ، وخلال هذه الساعات الثلاث تفتح معظم أجهزة الراديو فى العالم العربى ، فى القصور ، وفى الشقق وفى الأكواخ المبنية من الطين ، لسماع أم كلثوم ويكون الرئيس بين مستمعيها كلما سمحت له ظروفه .

وفى احدى السهرات فى عام ١٩٥٩ ازدحمت صالة فنــــدق هيلتون لعدة ساعات بأناس سمعوا انه من المقرر مجىء الرئيس عبد الناصر لحضور حفلة يوم الجيش ، ولكنه لم يظهر . وعرف

بعدها أنه كان يسمع أم كلثوم بل أن أم كلثوم منحت ميدالية من الجيش حسب قراره .

وحين يسال فى اى وقت ان يذكر اسم احب مؤلف امريكى عنده فانه يجيب انه ((**مارك توين**)) .

ولم يكن لديه وقت كثير فى السنوات الاخيرة لكى يقرأ شـيئا آخر ، ما عدا الدوريات والتقارير الحكومية ولكن اهتمامه بالأدب فى أيام شبابه انحصر فى كتاب « كيف تكسب الاصدقاء وتؤثر فى الناس » الذى الفه « كارنيجى » و « الحرب والأحوال النفسية فى وقت السلم » الذى ألفه « براون » .

وحينما كان عمر اكبر أبنائه ، خالد ، ستة سنوات ، نشرت احدى صحف لندن صورة امراة بريطانية ادعت انها خطيبة ابن ناصر ، وسال احد مراسلى الصحف البريطانيين الرئيس فيما بعد عما اذا كان قد غضب من ذلك ، فأجابه بضحك . لا ابدا لقد كنت انظر الى صورة السيدة الشابة وانا اشعر بالغيرة من خالد .»

بعد وقت قصير من قيام الثورة ، عين أستاذ ، مدرس بجامعة الاسكندرية وكيلا لوزارة الارشاد القومى ، وانتشرت الشائعات فى المقاهى ان هذا الاختيار وقع لأنه « زوج أخت ناصر » وفى اثناء احد المؤتمرات الصحفية القليلة التى يعقـدها ناصر سأله الصحفيون المصريون فى هذا الشأن وراوغهم فى الاجابة لمدة ساعة ، وأخيرا قال وهو يبتسم :

— ولكنى اود أن اختم حـديثى بأن اقول لكم انه ليس لى اخوات .

وهو يعارض بشدة محاباة كبار الموظفين لاقربائهم ، وقد كان ذلك عادة اكثر من كونه جريمة فى وقت ما قبل الثورة ، وهو يصر على انزال العقوبة الصارمة باى شخص يفعل ذلك .

ومنذ عدة سنوات تحدث تليفونيا مع صاحب احدى الصحف اليوميـة وسأله « الا ترى الصفحة الأخيرة » واجابه نعم ، هل تقصد سيادتك صورة والدك ، ما هو الخطـأ فى ذلك ؟ فأجابه عبد الناصر فى تصميم « اننى لا احب أن تنشر أخبـار أبى بين الناس ، واننى اخاف أن يركب ذلك راسه اننى أريد أن يعيش أبى واخوتى مثل الناس العاديين ، ولا اريد أن يفسدهم منصبى » .

ومنذ ذلك الوقت ، قليلا ما ظهرت صور اقربائه فى الصحف .

وبعد الثورة بعدة اسابيع حكى لاحد أصدقائه قصة لم تنشر ان امراة فرنسية غنية فى الاسكندرية كانت فى ورطة لانها خالفت قواعد احد مكاتب الحكومة وطلبت من خال جمال عبد الناصر ان يتوسط لها ، وعندما فعل ذلك ، اتصل رئيس هذا المكتب الحكومى بعبد الناصر يطلب تعليماته وأصبح عبد الناصر أمام قرار صعب ، لقد كانت مشاعره بالنسبة لأمه ما زالت قوية ، وهذا هو اخوها ولكنه اصدر اوامره بالقاء القبض على خاله وايداعه السجن .

ولا يشعر عبد الناصر نفسه بالراحة وهو بين جماعة من الغرباء وهذا هو احد الأسباب التى تجعله يبتعد عن أى شكل من اشكال الحياة الاجتماعية ويقضى معظم وقته بين الجدران الاربعة فى منزله فى منشية البكرى وهو يتحدث مع اشخاص من امثال نهرو وتيتو وشواين لاى ، حديث الند للند ولكن حين يتحـــدث مع « نصف دســتة » من الأوربيين ، حتى لو كانوا ملازمين أوائل فى الجيش البريطانى أو مجرد تجار للصواميل ومسامير القلاووظ ، فانه يتخذ موقفا دفاعيا قلقا .

فهرس

صفحة